نجلاء محمود محرم

لأنَّكِ لَمْ تَعْرِفِي زَمَنَ افْتِقادِك

قصص قصيرة

مركز الحضارة العربية

لأنك لم تعرفي زمن افتقادك

قصص قصيرة



- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة، تستهدف المشاركة فى استنهاض وتأكيد الانتماء والوعى القومى العربى، فى إطار المشروع الحضارى العربى المستقل .

- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافى والعلمى مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة

- يسعى المركز من أجل تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب، ونشره وتوزيعه .

- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه .

- الآراء الواردة بالإصدارات تعبر عن آراء كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية .

◆

رئيس المركز

على عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد

مركز الحضارة العربية

٤ ش العلمين - عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات - القاهرة

تليفاكس : 3448368 (00202)

E.mail alhdara_alarabia@yahoo.com
alhdara_alarabia@hotmail.com

نجلاء محمود محرم

لأنكِ لم تعرفي زمن افتقادك

قصص قصيرة



الكتاب : لأنك لم تعرفي زمن افتقادك
قصص قصيرة

الكاتب : نجلاء محمود محرم

الناشر : مركز الحضارة العربية

الطبعة العربية الأولى : القاهرة ٢٠٠٢

رقم الإيداع . ٢٠٠٣/٢٣٨٦
الترقيم الدولي : I.S B.N 977-291-427-1

الغلاف
تصميم الغلاف : طارق العوضي

الجمع والصف الإلكتروني :
وحدة الكمبيوتر بالمركز
تنفيذ : أحمد أمين
تصحيح : زكريا منصور

لأنك لم تعرفي زمن افتقادك !

" وفيما هو يقترب نظر إلى المدينة وبكى عليها قائلاً : إنك لو علمت أنت أيضًا حتى في يومك هذا ما هو لسلامك . ولكن الآن قد أخفي عن عينيك . فإنه ستأتي أيام ويحيط بك أعداؤك بمترسة ويحدقون بك ويحاصرونك من كل جهة . ويهدمونك وبنوك فيك ولا يتركون فيك حجرا على حجر لأنك لم تعرفي زمن افتقادك ."[1]

قال الشيخ :

ـ كنتُ شابًّا .. قويًّا .. عفيًّا .. حين رأيت أبي مطروحًا .. مبقور البطن .. نازف الأنف .. اشتعلت نارًا .. أمسك بي من لم أرَ ملامحهم .. قالوا : لو ذهبت للانتقام الآن ستكون من الخاسرين .. لابد من التهيؤ والاستعداد .. ليكون في هبَّتِنا الخلاص ..

صَمَتَ الشيخ .. سرحَ فيما لم يجرؤ يومًا على البوح به ..

---

(١) إنجيل لوقا ، الأصحاح التاسع عشر .

كل شيء كان قد ضاع بالفعل ..

خلف جثة أبيه كانت الدار مهدومة .. وحولها أشجار الزيتون مشتعلة .. وهناك كان الحقل مبقور البطن كأبيه .. مهروسة نبتاته في ترابه .. وألسنة النار ترتفع من المسجد .. وقارع الأجراس مقتول في برج الكنيسة العتيقة .. وبجوار جسد أبيه النازف جلست أمه تولول .. تخبط فخذيها بكفيها وتنوح .. ترفع يديها للسماء وتستغيث ..

***

"مكتوب بيتي بيت الصلاة يُدْعَى .. وأنتم جعلتموه مغارة لصوص" (١)

طالعتني فوهات بنادقهم ..

لكثرة ما سمعت فحيح تهديدها تعلمت لغتها .. بادلتها الفحيح :

"إذا فعلت فعلتُ" !

ظلت ترمقني بعيونها الكارهة .. وأرمقها بعينيَّ الواثقتين .. أسمع لهاث توترها .. أشْتَمُّ رائحة بُغْضها .. أروح وأجيء أمامها .. تتابعني .. أشعر بها ترمقني في ظهري .. أُبرق لها بنفس الرسالة :

"إن فعلت فعلتُ" !

على أحجار المسجد تستند فوهاتها السوداء .. بينما

---

(١) إنجيل متى . الأصحاح الحادى والعشرون

تختفي أجساد حامليها خلف الأسوار .. تنتهز فرصة سجودى .. ينطلق زعيقها .. تخترق حروفها الحارقة ظهرى .. أنكفئ .. وقبل أن أموت أبعث لها بآخر رسالة .. وأستقبل صراخها الملتاث ..

***

"الحق الحق أقول لكم : إن واحداً منكم سيسلمنى " [١]

أتى الربيع جالبًا معه نفس الهدية ..

رائحة زهوره .. هواؤه .. همسات الصيف التى تتخلله .. تحمل ذات الهم الذى يتربص بنا دومًا .. هُوَ هُوَ .. نفس الهم الربيعي الدامي .. نفس الخيانة ..

منذ عانقه يهوذا فى الربيع .. ثم التقط القلم ووقع .. ومدّ يمناه يصافح سارقه وأخذ الثلاثين من الفضة .. وترك كنوز المجد الأعظم .. وصار يعد ثروته ويحصيها .. ويقول :

"مالى به ؟ أتعبنى وأتعبنا جميعًا "

وعندما أدرك جرمه ألقى فضته فالتقطوها ..واشتروا بها حقل الدم[٢] .. وصاروا يدفنون فيه كل ساعة شهيداً !

***

"إنى مستعد أن أمضى معك حتى إلى السجن وإلى الموت . فقال أقول لك يا بطرس : لا يصيح الديك اليوم قبل أن تنكر

---

(١) إنجيل يوحنا ، الأصحاح الثالث عشر .

(٢) حقل الدم هو اسم مقبرة الغرباء التى اشتراها اليهود بالثلاثين فضة التى دفعوها ليهوذا الاسخريوطى ثمنا لبيع المسيح ، ثم ردّها إليهم نادما .

ثلاث مرات أنك تعرفني " [1]

لم تفارقه ابتسامته ..

تماماً مثلما لم يفارقه شاله المنقوش بالمربعات البيضاء والسوداء ..

كان يعرف حدود هؤلاء الذين حوله .. يعرف حدود قدرتهم .. وحينما يلمح وجوه أصدقائه تطالعه من طاقات حصون أعدائه .. لا يندهش .. لكن يوَسِّعُ ابتسامته !

هو التاريخ .. لايملُّ تكرار نفسه .. ونادر من يتذكره منا ..

وهاهو " بيلاطس " [2] يغسل يديه متبرئاً ..

صار الجميع " بيلاطس " !

ولم تفارقه ابتسامته ..

فالجثث الملقاة على المداخل .. والبيوت المهدومة .. والشيطان المنشب حربته في بطون الصامدين .. كل هذا قد يفرق القرناء .. قد يطمس الأُخُوَّة .. لكنه أبداً لايغتال الحق !

مادام "هو" : لا يزال يبتسم !

***

"يارب كم مرة يخطئ إليّ أخي وأنا أغفر له ؟ هل إلى سبع مرات ؟ قال له يسوع : لا أقول إلى سبع مرات ، بل إلى سبعين سبع مرات "[3]

---

(١) إنجيل لوقا ، الأصحاح الثاني والعشرون .

(٢) بيلاطس الحاكم الرومى للقدس زمن المسيح عليه السلام الذى غسل كفيه معلناً براءته أمام اليهود من ذنب قتل المسيح ثم أمر بصلبه !

(٣) إنجيل متى ، الأصحاح الثامن عشر .

سبعون سبع مرات .. هل تكفى ؟
الأمهات مازلن يلدن إخوة ..
وما زلتَ أيها الشقيق وحيداً ..
وأمام الدار يقطع الجلاد أخشابه .. صانعا الصليب ..
وعيناه اللامعتان تتوقان لرؤية دمائك ..
ترى .. هل تكفى سبعون سبع مرات من الخطأ لتنفد أخطاؤنا ونكسر الصليب ؟
ولأن نساءنا مازلن يلدن .. فقد امتلأت أرضنا إخوة ..
وظللت تسامح .. ولا تحصى الأخطاء .. فسبعون سبع مرات من الخطأ ما عادت تكفيهم !

***

" فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم . وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس . وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به . وهأنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر " [١]

فوق الصليب مدقوقة يداك وقدماك ..
و"باراباس"[٢] أطلق ليحتفل بالعيد !
ودماؤك تقطر فتختزنها ذاكرة التراب لتُجَرِّعها للناس ندماً وعذاباً ..
شالك المنقوش بالأبيض والأسود فوق رأسك إكليل ..

---

(١) إنجيل متى ، الأصحاح الثامن والعشرون .
(٢) باراباس : المجرم الذى اختاره اليهود ليطلق سراحه فى العيد ورفضوا إطلاق سراح المسيح بدلا منه .

وفوق رءوسنا عار .. أنت منا ..

أسلمناك .. وأنكرناك .. واخترنا " باراباس " ليرتع فى الأرض دونك .. ثم جئنا نبكيك مصلوباً !

ما عدنا نحزن ..

ما عاد " الحزن " تعبيراً شافيًا .. فلننحت من مآقينا تعبيراً يناسب المشهد ..

نظيفة يدى "بيلاطس" .. سعيد "باراباس" بالعيد .. طروبة نسمات الفصح .. نحن فقط الشائهون .. جرثومة الجبن رعيناها حتى انطلقت وباء يقتل كل خلية تهم بالفعل !

لا نستطيع مسح دموع المجدلية .. ما زالت تبكى .. وما زلنا ندير وجوهنا كى لا ترى العجز فى أعيننا !

سنموت نحن .. وتقوم أنت .. وتظل قائمًا .. وتتجدد الأجيال من حولك .. حتى يأتى الجيل الذى لا يسلمك ولا ينكرك .. وعندئذ تكون القيامة قد حانت !

أبريل ٢٠٠٢

خـــروج

لا شك أنه فوجئ ..

مــسكنه الـدافئ .. النـاعـم .. يثـور .. تضــربه حـوائـطه .. تدفعه .. تنطره .

وبحيرة " خمارويه " الأسطورية التى كان يسبح فيها يغيض مــاؤها .. ويصـــبح مـلقى فى قــاع مــسـكنه .. تـطبق عليــه الجدران .. تفعصه .. تنتبه حواسه .. يعرف معنى الألـم ..

يتقلب داخل بيته .. يرتطم أمامًا وخلفًا .. تكاد الجدران تخنقه .. كفاه الصغيرتان لم تعرفا التشبث بعد .. تتسارع حركة الجدران الثائرة .. لا فرصة للراحة .. الضربات توجع ظهره البض .. وتحتدم الثورة .. ويزداد الضغط .. ويصاحب الألم اختناقٌ .. يعرف معنى الاختناق ..

تعانى مؤخرته ضغطًا هائلاً .. بيته اللين يتصلب .. يدفع .. يطرد .. ينفلت خارجًا !

فى نفس لحظة انفلاته .. تخترق صرخة حادة أذنيه ..

يعرف معنى الصوت .. تقبض على ساقيه قوة .. يشعر بلسعات على جسده .. يُؤخذ .. يُقْلَب .. يغمر في الماء .. يطمئن .. يظن أنه عاد لبحيرته الأسطورية .. يُرْفَع .. شيء يتردد في حلقه .. يُخْرِجُ صوتًا .. يرفعه ويرفعه .. يعلن الغضب .. يعرف معنى الغضب .. ترفس القدمان البضتان .. تنقبض الكفان .. ينثني الكوعان في ضيق .. يتسكب شعاع الضوء في الحدقتين الصغيرتين .. فتميزان النور .. ينزعج أكثر .. يتقارب الحاجبان الزغبيان في تقطيبة مؤثرة .. يرتفع الصوت .. تزداد الرفسات عنفًا .. تتسارع حركات الذراعين المتبرمتين .. تبخر الأمان وانفتحت طاقات الرعب .. يعرف معنى الخوف .. ينقبض القلب .. تتلألأ الدموع المنحدرة على الوجنتين البضتين ..

يستند الجسد المتألم إلى صدر دافئ .. تمتص الشفتان حلمتين تجودان برحيق الراحة .. يستكين القلب الصغير لهمسات قلب كبير .. يتسرب الخدر إليه .. ينام .. وشهقات الخوف تنفض جسده المكدود ..

يونيه ٢٠٠٠

تسَلل

تسلـلَّلَ إلى غـرفـتي ونام على البـسـاط بجـوار السـرير . . واغرورقت عيناه حين هممت بطرده . . وتساءل بذلة :

ـ أين أنام إذن يا سيدى ؟

مد يده إلى طعامي وألقي بعضـه في فـمـه . . وعندما رمقته بغضب ابتسم . . .وقال لى :

ـ أنت سيدى !

صرت آكل نصف ما كنت آكله . . وصار هو ينتقي الأطيب من الطعـام . . ورغم أنه يدعي عـدم تعـمـده الانتـقـاء إلا أننى أصـبـحـت آكل يابس الطعـام وهو يأكل سـمـيـنه . . ويقـول مبتسماً :

ـ نحن شركاء

***

قفز إلى فراشي والتحف بغطائي . . وقال لى :

ـ نَمْ أنت على البسـاط مرة !

وتكررت المرات وصرت لا أحسب عددها ..

لم يعد يرفع بقايا " طعامه " ولا يرتب " فراشه " .. ولاينظف " حجرته " .

وصرت أنا أقوم بالأعباء وحدى .. وأخاف نظرة الخبث في عينيه .. وأرتاح حين يمتدح نشاطى !

أسرع لاستقبال ضيوفه وتحيتهم .. كانوا يظنوننى ضيفه ويظنونه صاحب المكان .. وكان هو يقول لي :

ـ لا بأس .. أنا وأنت واحد !

صار لا ينتظرنى لنتناول الطعام .. وأحيانا يأكله كله .. وصار يغلق باب الحجرة على نفسه وأنام أنا خارجها .. وصار يأمرنى بتنظيف المكان وترتيبه .. ويدعونى أمام أصدقائه : مساعده ! ويقول عني إننى مساعد لا بأس به لولا أننى حرون !

فوجئت به يوماً يهوى بكفه على قفاى ! التفت ثائراً رافعاً كفى فإذا به يقبض على معصمى ويقول :

ـ مزحة ! ألا تحب المزاح ؟

تكرر مزاحه في رواحه وغُدُوِّه ..

وتحوصل الغم بداخلى ..

وازداد حنينى للماضى الكريم ..

***

قال لى :

ـ أريد أن نعقد اتفاقاً .. يكون من حقك بمقتضاه أن تنام في

الردهة ويكون من حقى كل صباح أن أبصق على وجهك !
لأننى بصراحة لا أحب أن أبصق على أرضية "حجرتى"
وألوثها !

قلت له :

– أنام فى الردهة ؟ أنا أنام على الأريكة . .بجوار باب حجرتك التى كانت فى الأصل حج. . . .

قاطعنى بنظرة متوعدة ولوح بسبابته . .

قلت : أنا أنام على الأريكة . .

ابتسم وقال :

– إذن سأتنازل لك . . وتنام على الأريكة . . ونبرم الاتفاق !

وصار يستغل الحق الذى يمنحه له الاتفاق كل صباح . . فى مقابل نومى على الأريكة !

تضخم بداخلى الاستياء من نفسى . .

وحين جمع أصدقاءه ليشكو لهم ارتفاع شخيرى فى أثناء الليل بصورة تؤرقه . . وأصر على طردى من البيت . . رجاه أصدقاؤه وألحوا عليه أن يسمح لى بالنوم فى الردهة فى مقابل تنظيفى لحذائه كل يوم أمام الدار وهو واضع فيه قدميه !

المرارة تحتل كل خلاياى . . هذا بيتى . . أأتركه وأهج ؟

***

أنا الآن نائم أمام سور الحديقة . . وهو يطلب منى أن نبرم اتفاقاً ليسمح لى بالاستمرار فى النوم أمام سور "حديقته" فى

مقابل تقبيلى لقدمه ـ راكعًا ـ كل صباح !
خرجت الـ : "لا " من فمي ثائرة صاخبة ..
رمـقني بغـيظ ودهـشـة .. نـظرت إلى بيـتى فـإذا به بـعـيـد بعيد .. وإذا أصدقاؤه متناثرون فى الطريق إليه .
وفى طريق الآلام الطويل قررت أن أعود !

أبريل ٢٠٠٢

الغربان

ـ عا .. عا .

أطلقت الغربان أصواتها .. ضربت الهواء بأجنحتها السوداء .. تركت قمم الأشجار وهبطت إلى جانب الطريق السريع .. عادت تطلق حناجرها .

ـ عا .. عا .

الغربان الستة تقف صفًا .. ترقب نهر الطريق وكأنها تنتظر حافلة ! ويصيح غراب متعجل نفس الصيحة التى تجمع بين صوت الجاموس وأنين السواقى .. ويحجل من حطٍّ فى المؤخرة ليوازى صف الزملاء .. والجسد الحيوانى الصغير متهتك متناثر فى وسط الطريق .. لا يظهر إن كان لقط أو كان لكلب .. تساوى الأمر .. هو الآن ميت ينتظر إرادة الأحياء .. يتزايد عدد الغربان .. تحتشد على حافة الأسفلت .. تتركز نظراتها على الأشلاء الدامية .. يخلو الطريق من السيارات .. يحجل الحشد نحو القتيل .. ينتش أجزاءه ..

تنقطع أصوات الغربان الآكلة .. ترصدها الغربان المحلقة .. تحط قريبًا منها وتحجل حتى تصل إليها .. تقترب السيارات فتطير .. تنتظر على التراب ترقب .. ثم تحجل .. تنتش وتزدرد .. تتواجه المناقير للتحذير .. يتراجع البعض فى تسليم .. يلتقطون ما يتناثر من مناقير السادة وينتظرون ! بطون السادة لا تمتلئ .. والضعفاء لا يحلمون إلا بسدّ الرمق .. يطير الجميع لتندفع السيارة .. يحط الجميع .. عرف كل غراب موضعه .. يعود من كان فى الخلف إلى مكانه .. يتقدم معشر الصدارة .. تفسح لهم غربان الجوع فى خضوع .. تنفلت قطعة لحم من أحد المناقير الطاغية .. يتصارع حشد المؤخرة عليها .. الأجنحة تضرب .. الحناجر تنوح : عا .. عا .. ينتبه فريق الأقوياء .. يتقدم الأسود الطاغى .. يتراجع الجبناء .. تستقر قطعة اللحم فى جوفه .. يستدير ليكمل وجبته .. يتضاعف غربان المؤخرة مرات .. ويزداد غربان المقدمة آحادًا .. يتمرس الجميع فى الطيران عند قدوم السيارات والهبوط لنفس موقعه عند انقطاعها ..

الصفوف الأولى لا تشبع .. والفريسة تكاد تلتهم بالكامل .. والغراب الشيخ لم يأكل منذ يومين .. لم يعد جناحاه يسعفانه بالطيران والبحث .. وعيناه صارتا عاجزتين عن رصد الفرائس .. والفريسة التى أمامه تكاد تنتهى .. وهو لا يريد أكثر من نسيرة صغيرة تسكت صراخ أحشائه .. لكن

موقعه فى الحلقة الخارجية .. بل هو بمفرده فى الخارج .. فيما مضى كان يقف وحده أمام الفرائس .. وفى كل عام يتراجع خطوة .. حتى صار هذا مكانه !

***

لما طارت الغربان جميعًا .. تقدم هو .. حجل بطيئًا .. وقبل أن يصل إلى موضع الفريسة الملتهمة كانت أشلاؤه قد تناثرت .. وعادت الغربان إلى نفس صفوفها لتتعامل مع الوجبة الجديدة !

أغسطس ٢٠٠٠

مفردات مجموعة

طالت المدة ولم ينزل "شوقي" .. لا أحد يتحكم في إجازات المجندين ولا تنقلاتهم .. أم "شوقي" تدرك هذه الحقيقة فمنذ أن حصل ولدها على دبلوم الصنايع وهي قد اعتادت غيابه .. لكنها هذه المرة تخشى أن يأتي موعد فرح أخته دون أن يحضر .. كل شيء أُعِدَّ ولم يبق إلا حلول اليوم الموعود ومجيء "شوقي" ..

و"شوقي" هناك .. يقضي العمر منتظراً .. يرنو إلى مياه تبرق تحت وهج الشمس .. وإلى رمال كابية .. ويردد :

ـ متى ؟

العروس تؤكد للجارات والصاحبات وهُنَّ أمام الفرن يخبزن كعك العرس .. أن "شوقي" آتٍ آتٍ .. وأنه إن لم يأتِ لن تتزوج !

ولما لم يبق على موعد الفرح سوى أيام ثلاثة .. عبث القلق بقلب الأم والأخت .. وطُرِحَتْ مسألة تأجيل الموعد .. وإذا

بشوقي يسد فتحة باب الدار بجسمه الطويل العريض .. فترتمى في حضنه امرأتان ليس لهما سواه .. يجلسون جميعا بجوار أسبتة الكعك والمراتب المنفوشة .. يصلهم قَوْقُ الدجاجات المحبوسة في قفص من الجريد والتي سُمِّنَتْ لتذبح وتطهى عشاء للعروسين ..

في فجر اليوم التالي سافر " شوقي " .. بعد أن انتزع من أمه وعداً بألا يُؤَجِّل فرح شقيقته .. وعلى عتبة الدار كررت الأم رجاءها له ألا يكسر خاطر أخته .. فقال إنه سيحاول ..

***

وجـــاء "شــــوقي" ووضع يده في يد المأذون .. ودوت الزغاريد .. وعزفت الموسيقى ورفلت العروس في ثوبها الأبيض طويل الذيل ! واصطفت الفتيات على درجات السلم الرخامي العريض الذى صعدته أمها عروساً جميلة ذات يوم ! وغادرت العروس قصر أبيها الراحل في موكب لم تشارك فيه الأم التي فضلت الاختلاء بنفسها لإطلاق العنان لدموعها التي حبستها أياماً .. وبدأت مناجاتها للزوج الراحل ..

وفي فجر اليوم التالي سافر " شوقي " .

ليواصل الانتظار على الشاطئ الصامت .. وليرقب الرمال وهي تزداد إعتاماً .. وتتردد في داخله نفس الحروف مكونة نفس الكلمة : متى ؟

***

الأم الوحيدة لم يعد لها - هي أيضًا - سوى الانتظار ..
تواظب على الذهاب للكنيسة كل أحد .. واليوم - الأحد -
وصل " شوقي " وتوجه رأسًا للكنيسة .. هَشَّتْ وجوهٌ لمرآه ..
وأومأت بتحيات هادئة .. أشارت له أصابع إلى مكان أمه
فتوجه إليها .. سمع القريبون صوتها حين فوجئت به أمامها :
يا حبيبي !

***

وفي فجر اليوم التالي سافر "شوقي" .. لاحظ وجوهًا
جديدة .. ضباطًا وجنودًا .. التغير طرح بدائل جديدة
للانتظار .. استكشاف وتعارف واستفسار .. وزملاء جدد ..
وقدامى أصبحوا جددًا في مواقع أخرى .. كاد الأمل يستيقظ
داخله لولا الذاكرة التي همست له أن مثل هذه التغييرات
حدثت كثيراً من قبل ولم يعقبها شيء .. وزاد حنينه إلى ما
ضاع فدونه أشعارا كما تعود .. ومَنَّى نفسه بأن يصدر ديوانه
الأول مبدوءاً بقصيدة انتصار !

***

لم تزد إجازته الأخيرة عن أربع وعشرين ساعة .. بلَّتْ
فيها أمُّه ريقَها بمرآه .. وجاء أخوه مغسول الوجه بالعرق
يجري من حقله .. ليخبره أن زوجته حامل .. أوصاه أن يعلم
أبناءه .. ويكفي ما يعانيانه هما من أميتهما .. قالت أمه :
"أنت سيد الناس" .. رد مبتسمًا بمرارة :

"سيد الناس لا يستطيع أن يكتب اسمه" !
وفى فجر اليوم التالى سافر شوقى ..

***

وجاء زملاؤه ..
فأعطوا أمه مصحفًا صغيراً .. وختمًا يحمل اسمه .. وصليبًا معلقًا فى سلسلة .. وقصيدة انتصار .. ضمتها جميعها إلى حضنها .. وانهمرت دموعها الحنون !

نوفمبر ١٩٩٩

رائحة القمر !

فى طريق عودته كل يوم كان يراها مرصوصة على الأقفاص الجريد .. أرغفة الخبز الساخنة .. يراها أقماراً .. بيضاء .. مستديرة .. تضيق خطواته وتبطؤ دائماً أمام الفرن .. يتنشق عبير أقمار الخبز الساخنة ! تمتد نظراته إلى داخل الفرن .. يراها منتفخة .. فواحة .. يتحلب ريقه لرغيف ساخن .. يتذكر أباه المنتظر فوق الكنبة المغطاة بكساء مصنوع من "قصاقيص" القماش .. يمد يده ليضع فى كف أبيه المفتوحة قروش يوميته الضئيلة .. فتبتلعها كف الأب بعد أن يعدها بأطراف أصابعه الغليظة .. يتكوم الصغير خلف الباب منتظراً عودة أمه .. بينما " تقرقر " شيشة أبيه بتؤدة .. يتابعه وهو يملأ صدره بدخانها ويحبسه باستمتاع ثم يزفره بتأنٍ ونشوة ! يمد كفه بماشة سوداء مقلباً الجمرات التى أوشكت على الانطفاء .. لا حوار .. لا مشاركة .. لا بسمات .. هو يتأمل الأب بانتباه وتركيز .. والأب لا يكاد يحس بوجوده .. وحتى

إذا لمحته عيناه نصف المغمضتين وهو يجذب أنفاس الدخان .. يظل ناظرا إليه ببرود إلى أن يمتلئ صدره .. فيرفع فمه عن مبسم الشيشة .. ويحول نظرته للسقف .. ثم يبدأ فى إخراج الدخان بتلذذ !

الوقت صيف .. والجو حار .. لكن أسنانه تصطك فيكور نفسه .. تنتابه وهو بمفرده مع نافخ الدخان برودة غريبة !

تراوده فكرة البوح .. الفرن .. أقمار الخبز الساخن .. "**نفسي فيها يا امه**" .. كل يوم وهو جالس ينتظرها .. تشكشكه"برودة انفراده بأبيه .. وتراوده فكرة البوح .. لكن ...

سمع دقات "شبشبها" على السلمات الخمس المؤدية إلى الحجرة .. جرى إليها قبل أن تدخل .. احتضن خصرها النحيل وأسند رأسه .. ضمته إليها وانحنت تقبل رأسه الذى تفوح منه رائحة البنزين والجاز .. همست :

– أين هو ؟

أشار بسبابته للداخل .. طبطبت على صدره .. اصطنعت ابتسامة وهزت رأسها هزتين لتطمئنه .. تغيرت نظراتها حين تطلعت للباب المفتوح .. دخلت .. الهَمُّ يقطر من عينيها .. جاءها صوته الغليظ :

– طول النهار فى الشوارع وسكتنا ! لا ينقصنا إلا العودة فى أنصاف الليالى !

- أنصاف الليالى؟ والله انت! العشاء لم تؤذن بعد! خُذ خُذ ..

ناولته الكيس المنتفخ وابتسامة الخوف والمداهنة تملأ وجهها .. وضع الكيس جانبًا .. بسط كفه ومَدَّ ذراعه .. أخرجت من صدرها حافظة متآكلة تساقط جلدها وظهرت خيوط بطانتها الداخلية .. أفرغتها فى كفه .. عدَّ الفلوس ودسها فى جيبه وهو يتمتم : "مضبوط" ! جذب الكيس ..

- فلنرَ ماذا أحضرت ؟

أخرج من الكيس الكبير أكياسًا صغيرة كثيرة .. بها أرز مطبوخ وبعض الخضار .. وقطع من اللحم السمين وعظام الدجاج .. وقليل من شعيرات الكنافة المنكوشة المختلطة بالزبيب .. وفي قعر الكيس الكبير كانت ترقد كسر الخبز الباردة اليابسة !

" لماذا يا أمي ؟ أما من يوم تنسين فيه هذا الخبز ؟ "

كل يوم يراوده نفس الحلم : "**ستنسى أمي الخبز .. وسيمد أبى كفه ببعض النقود : خذ يا ابن الـ ... هات لنا رغيفين من الفرن ! وأجرى .. وأنتقي أحسن الأقمار .. وأعود سريعًا قبل أن تبرد .. آه يا له من طعم لذيذ!**"

لكن قطع الخبز اللعينة تطل دائمًا من الكيس وكأنها ابتسامات سمجة تغيظه !

" أين تذهب فلوسى وفلوس أمي ؟ "

السؤال يلح عليه دائمًا رغم أنه سمع إجابته من أمه عدة مرات وهي تشكو لصاحباتها .. قالت لهن : يتجرع سُمًّا !

لكنه لا يدرى كيف يتجرع السم ولا يموت ! ما تقوله أمه إذن غير صحيح .. والسؤال ما زال سؤالاً !

***

فى إحدى المرات مدَّ يده إلى قفص الجريد .. لمس الرغيف المنتفخ .. آه .. رائع .. طرى وساخن .. و آه .. لابد من البوح ! تشبعت أصابعه برائحة الرغيف .. مضى عائداً يتشممها .. "**أمى ستعطينى الشلن لأشترى الرغيف**" .. انتبه إلى يوميته الرابضة فى جيبه الآن .. عشرون شلنا ! ماذا لو أخذ واحداً ؟ واحداً فقط ؟! ستُربَطُ قدماه بالحبل .. وستتورمان من الضرب .. وسينام بدون عشاء .. وسيأكل ضاربه كل ما فى الكيس وحده .. وستأخذه أمه فى حضنها وهى تبكى وتدعو – في سرها – على الظالم والمفترى !

"**لا لن آخذ من اليومية شيئًا ! سأقول لأمى .. هى كبيرة .. وستتصرف .. لكنه يَعُدُّ يوميتها هى أيضًا ..ويضربها .. وحين يضربها أفزع .. وأكرهه ..وأجرى إليها ..فيضربنى معها ..**"

***

فى المساء والنعاس يتسرب إليه .. أطل عليه القمر من النافذة بدراً أبيض حنوناً يبتسم له .. سألها :

- ماذا يشبه القمر يا أمى ؟

ضمته لحضنها ضاحكة وقالت :

- يشبهك !

- لا طبعاً .. يشبه رغيف العيش !

- القمر ؟

- نعم .. الفرن مليء بالأقمار .. يصطادها الفران من جوفه ويرصها على الأقفاص .. أقمار رائحتها جميلة !

سمعا وقع القدمين المهزوزتين على السلم .. اختبأ فى حضن أمه .. أغمضا أعينهما .. وتناوما !

***

اعتاد أن يلمس أقمار الخبز إذا أتيحت الفرصة .. يتلفت يمنة ويسرة ويتحسس وجه الرغيف .. فتشرق على وجهه ابتسامة تظهر معها الفراغات التى تركتها قواطعه اللبنية المخلوعة ..

مد كفه الصغيرة .. آه .. ياله من دفء لذيذ .. انقطع إحساسه بالرائح والغادى .. نسى موعد ورشته .. لم يسمع أبواق السيارات .. الكون كله أمامه مستدير .. دافئ .. شهى .

. لم يدر بنفسه إلا وهو مختبئ فى مدخل بيت مظلم وفى كفه الصغيرة رغيف .. ساخن .. فواح !

يناير ٢٠٠٢

حين كبرنا !

عم "ريحان" حارس الحديقة العجوز.. كان لايسمح لنا بدخولها.. وكنا نتسلل في جوف الليل.. ويمتطي بعضنا ظهور بعض.. ونمد أذرعنا الصغيرة عاليًا.. ونفرد أكفنا علَّ أطراف أصابعنا تطول حافة السور.. ويأتينا صوت عم "ريحان" ضاحكًا:

– حين تكبرون ستدخلون حديقتي !

و لما تتعالى رجاءاتنا :

–والنبي يا عم " ريحان "

يطل علينا من أعلى السور بوجهه الطيب الذى ينيره القمر.. ويبتسم قائلاً :

– اذهبوا الآن لتمرحوا وتلعبوا .. وحين تكبرون سأفتح لكم باب حديقتي !

ونسأل الكبار :

– ماذا في حديقة عم "ريحان" ؟ من يزرعها ؟ ماشكل طيورها ؟ وأين بابها الذى يقول إنه سيفتحه لنا حين نكبر ؟

يصمت الكبار قليلاً .. يتفرسون فى وجوهنا المتلهفة ثم يسألوننا بدورهم :

- وهل رأى أحد حديقة عم ريحان ؟

***

أيكذب عم "ريحان" ؟! لا .. إنه رجل طيب .. لكن الكبار لم يدخلوا الحديقة .. فلماذا يقول إننا سندخلها حين نكبر ؟

ويطن السؤال حولنا كنحلة تقلقنا وتهددنا ..ولا نستطيع الهرب منه ..

***

- يا عم "ريحان" .. يا عم "ريحان" .

أمام السور أطلقنا أصواتنا الرفيعة .. والشمس تحاول أن تثقب سحب الشرق الحمراء بأشعتها الذهبية لتمتطيها وتحلق عاليًا وترانا .. والظلام الذى اتفقنا بالأمس أن نستيقظ قبل رحيله قد بدأ يرحل.. وأطل علينا عم "ريحان" من فوق السور.

- كبارنا لم يدخلوا حديقتك يا عم "ريحان" .

- نعم .. لم يدخلوها !

غمرنا صمتٌ .. تحرجنا ولم ندر ماذا نقول .. تجرأت أنا :

- لماذا ضحكت علينا يا عمنا وقلتَ : إن الكبار يدخلون الحديقة ؟

- يدخلها الكبار يا صغيرى .. إذا حاولوا !

***

فاجأتنا الإجابة .. أوَ لم يحاول كبارنا دخول الحديقة ؟
جلسنا في ذهول .. أسندنا ظهورنا للسور .. حاولنا أن نفسر إحجام الكبار عن دخول الحديقة .. قهرنا العجز وهدنا الملل.. سرنا نحو بيوتنا .. الطريق إلى الحديقة خال كما هو دائماً .. وعند مدخله من جهة القرية كان حامل الشومة يقف كعادته.. انبثق نفس السؤال في أذهاننا جميعاً :
أيكون هو من يحول بين آبائنا والحديقة ؟
نظرنا إليه نبحث عن إجابة لسؤالنا.. جرينا حين رمقنا بعينيه الكارهتين.. لم نهتم من قبل بنظراته البغيضة.. شغلنا اللعب ومرح الصغار.. تجولنا نفتش في العيون.. ونحصى حملة الشوم.. واحد.. اثنان.. عشرة.. مائة.. عدنا لبيوتنا.. القلوب يستوطنها حزن خفي .. نظرات حاملي الشوم تفزعنا.. ليسوا أعماماً .. ليسوا أخوالاً .. سألنا آباءنا :
- من هم ؟
قالوا :
- قطاع الطرق .. اجتاحوا بلدتنا .. وجعلوها وكراً لهم !

الانكسار في نفوس آبائنا يروِّعُنَا .. أمهاتنا يثنيننا عن الخروج .. نقفز من النوافذ .. نتجمع في ساحة البلدة .. نظرات حاملي الشوم تنفذ إلى عظامنا وكأننا نخطو فوق أكبادهم .. نروح ونجيء في الطرقات التي لا يقفون على

منافذها .. الآباء يمرون بجوارهم غاضين أبصارهم لكنهم يرفعون الشوم أمامهم فيسدون الطريق عليهم .. يستوقفونهم .. الآباء يردون فى هدوء على استفسارات مستفزة .. الآباء بدون مبرر يؤمرون بالعودة من حيث أتوا .. فيعودون ! تقول الأمهات : إن هذا ليس من شأننا نحن الصغار. ويمنعننا من الخروج .. فنعود لنقفز من النوافذ .. نظرات حاملى الشوم تملؤنا رفضًا .. ماعدنا نلهو ولا نلعب .. المرارة ملأت قلوبنا الصغيرة .. والأيام تمر .. وبيوتنا التى لم يحن دورها فى الهدم ليس فيها سوى الخبز الجاف .. بدأنا نلحظ اختفاء بعض الآباء .. ونربط بينه وبين الدموع الثخينة المنهمرة من عيون الأمهات .. عرفت آذاننا صوت الجوع فى بكاء الصغار حين يُمنع الطعام .. وعرفت أنين التوجع فى آهات المرضى حين يُمنع الدواء .. نقفز من النوافذ التى لاتغلقها أمهاتنا أبداً رغم خوفهن علينا .. حاملو الشوم يغلقون طرقًا ويضعون موانع ويقسمون البلدة كما يشاءون ..

فى الساحة الحزينة جلسنا ..

يأتينا أنين الجوعى ..

تتردد فى أسماعنا صرخات الألم .. ويقلب الدنيا فى أعيننا مشهد الآباء المهانين النازفين ..

وتطالعنا من بعيد ذؤابات أشجار حديقة العم "ريحان" ..

نعم ! حديقة العم ريحان !

تذكرناها.. بها مالذ وطاب من الخضر والفواكه.. وعم "ريحان" رجل طيب.. لن يرفض منحنا شيئًا منها لنطعم أهلنا..

جرينا عبر الساحة .. قطع الكاره طريقنا بشومته .. حاولنا دفع الشومة لنتمكن من المرور .. رفسنا بقدمه .. تراجعنا .. رَمَقنا .. رَمَقْنَاه .. هز رأسه فى صلف آمراً إيَّانا بالابتعاد .. تلاصقنا غاضبين .. التقطنا أحجاراً قذفناها في وجهه الكريه.. جرينا إلى طريق الحديقة .. سقط بعضنا تحت ضربات الشومة .. ومرَّ الآخرون نحو الحديقة .. فوجئنا ببوابة حديقة عم " ريحان " مفتوحة على مصراعيها ! مرقنا خلالها.. بينما كانت كل الطرق وراءنا قد امتلأت بمن صاروا كباراً !

أكتوبر ٢٠٠٠

خطوات

الشـمـس تضـيء وجـهـيـهـمـا بانحـراف قـليـل جـهـة اليـمـين.. الأقـدام الأربعة تخطـو شَمـالا .. تغـوص فى الرمـال الجـافـة .. قـد تـهـتـز قـدم لتـفـرغ نعلهـا المفتـوح من الرمـال .. الخطـوات بطيـئـة لا تنم عن شـوق للوصـول .. مـيـاه البـحـر تتـمـاوج وتـطـلق ألسنة طِوالاً كـأنهـا تتلظى .. السـاقـان الأبيـضـان يتـقـدمـان بثبات أكثـر.. ولا يرهبـان الوصـول إلى الميـاه.. لكنـهـمـا لا يحثـان السيـر نحوها .. وطـرف ثـوب وردى يتطـايـر ويكشف عن فخـذين عـاجيين .. وصـوت رقـيق يتسـاءل :

- هل كان من الضرورى أن نخرج مبكراً هكذا ؟

ولا يتلقى إجابة ..

الرمـال المبـتـلة جـعلت الخطوات أسـهـل .. لكن القـدمين الكبـيـرتـين مـازالتـا تعـانيـان ثقـلاً فى الخطـو .. كـأنهـمـا مهمومتـان.. والشعـيرات السـوداء فيـهـمـا نافـرة .. وقصبة

الساق بارزة تحيط بها عضلتان قويتان من الجانبين ..

مرات ومرات حملت تلك الرمال علامات هذه الأقدام نفسها .. واستشعرت سعادتها .. الرمال اليوم تبحث عن نفس السعادة .. القدمان الصغيرتان بأظافرهما المطلية باللون الوردى تتقدمان خطوة أو خطوتين .. والقدمان السمراوان تتبعانهما .. ربما تطآن نفس مواضع الخطو ..

***

البحر يزوم .. يحاول أن يمد مياهه لينهب اليابسة فتعود إليه قطراته متسربة بين الرمال .. ضوء الشمس فى النهار الوليد يهدده الإعتام .. كأن الليل يتربص بالنهار .. وفى الأفق تربض مياه البحر بلون أزرق داكن رهيب ..

تباطأت خطوات القدمين الصغيرتين قرب الوصول للماء .. استدارت قليلاً تترقب وصول القدمين الأخريين.. اكتسبت الشجاعة حين أصبحت الأقدام الأربعة على خط واحد .. ارتطمت موجة رعناء بالسيقان الأربعة فارتفع طرف الثوب الوردى طافيًا فوق المياه .. وصدرت شهقة :

– مازالت باردة .

صدر الصوت راجيًا .. لكنه لم يتلق ردًا .. امتد كف رقيق نحو ذراع أسمر متصلب فخشخشت أساور فضية بفصوص

زرقاء .. التف الذراع الرقيق محتضنًا الذراع الأسمر عند الكوع فانثنى الذراع الأسمر صانعًا زاوية يسهل التعلق بها .. ازداد التعلق وانسحب الجسد بثوبه الوردى فالتصق بجسد أسمر طويل رشيق ..

– كفاك خصامًا !

***

المياه تحملهما نحو صخرتهما التى كانا يظنان أنها ملكهما وحدهما .. فى الصباح الباكر يسعيان إليها قبل أن يحتلها متطفل .. وهاهما يسعيان .. الثوب الوردى الطافى طرفه على سطح الماء لم يستطع أن ينال إعجابه .. والكف الحنون لم تثر عواطفه .. والصوت الناعم لم يمْحُ غضبه ..

***

توقفتْ .. المياه تصل إلى ما فوق خصرها النحيل ببضع سنتيمترات .. هذا التوقف أمام الصخرة كان يعنى شيئًا ! حملها من وسطها فطالت قدمها فجوةً .. ثم ارتقت .. وأعقبها هو .. نسمات البكور تجعلها تنكمش في ثوبها المبتل الملتصق بجسدها الصغير وترتجف .. تعود تلتصق به .. يترك نفسه لقربها .. الأقدام الأربعة تخطو نحو الحافة البعيدة للصخرة العريضة الممتدة .. حيث لا يراهما أحد من الشاطئ .. تندس تحت ذراعه فيرميه عليها .. تشد كفه لتحيط كتفيها بذراعه .. فيستجيب .. تنتعش خطواتها .. وتثقل

خطواته .. تضغط بذراعها وسطه .. تتوقف قدماه .. تجذبه بذراعها الملتف حول وسطه ليكملا الباقى من الخطوات نحو حافة الصخرة المطلة على البحر العميق .. يجرجر قدميه .. يتوقف .. يخطو خطوة للخلف .. تهمس :

ـ سامحنى !

يستأنف السير بقدمين تزحفان .. تمسح وجهها فى صدره.. سيجلسان كعادتهما ناظرين للبحر العميق .. وسينسى كعادته أخطاءها ..

***

تستدير .. تسند رأسها إلى صدره .. تحيط عنقه بذراعيها.. تنظر فى عينيه .. ترتاع !

تدفعه .. يدفعها .. تنزلق .. تسقط .. يتوارى لون ثوبها الوردى الغاطس شيئًا فشيئًا !

تعاود المياه زرقتها الداكنة !

وتستدير قدمان تخطوان فى قسوة نحو الحافة الأخرى للصخرة !

ديسمبر ٢٠٠٠

نوع من النجاح

نبشٌ جديد ؟!

أما من شيء غير هذا النبش ؟

انطفأ بريقي .. وأكلني الصدأ .. ولا شيء غير النبش ؟

آهٍ لو يتسع هذا المكان الذى يحتويني قليلاً .. لو أتزحزح ! ملتصقة أنا بهذا المكان منذ .. ! منذ متى؟ منذ اندفعتُ اندفاعتى الكبرى ! حشرونى فى ماسورة ضيقة كادت تخدش جدارى اللامع .. ويالها من ضربة ملتهبة تلك التى أطلقتنى وطيرتنى فى الهواء .. فووووو .. أزيز حاد أصدره اندفاعى فى الهواء .. كنت فخورة بنفسى .. المنازل تمرق من تحتى .. الناس تمرق والحقول .. الحرائق مشتعلة .. صراخ .. فرقعات .. لم تطل سعادتى .. سقطتُ .. انغرستُ مكتومةً فى التراب .. وتعالت جولى أصوات انفلتت من خوفها :

"لم تنفجر" !

قلص الخجل أحشائى .. حاولت أن أندس أكثر فى التراب

لأدارى ما يظهر منى .. لم أستطع .. خيبتى التى رآها القريب أدركها البعيد فأتبعنى بزميلة لى .. أدت مهمتها بنجاح .. وغطتنى بطبقات سميكة من التراب والأحجار والأجساد الممزقة ..

نبش .. نبش ..

لاشيء غير النبش .. ثم يرحل النابشون .. وأبقى مدفونة فى مكانى .. أتآكل شوقًا للحركة .. ذرات التراب الملتصقة بجدارى تخنقنى .. الحيز الذى أشغله ينضغط .. يطبق علىّ أكثر وأكثر .. ذرات التربة تكاد تتخلل ذراتى .. مصيبة لو نجحت فى الاختلاط بى .. أتحول إذن إلى كتلة طين ! أُحْمَلُ فوق الدواب .. وتبحر بى السفن من البلد البعيد إلى هنا .. وتَجُرُّ العربةَ التى تحملنى ومدفعى الخيولُ الأشداء .. يتعب فى سبيلى من يتعب .. ويموت من يموت .. لأنتهى تلك النهاية الحقيرة .. وأفشل .. وأصبح كتلة طين !

ألا يتحول هذا النبش إلى حفر أبدًا ؟ اشتقت للنور .. ما عدت أخجل من ظهورى للناس .. ذهب من عاصروا فشلى .. وأنا الآن فى نظر من يجدنى : قنبلة ! قنبلة مدمرةٌ مفزعة ! وحين ينزاح ركام السنين من فوقى .. "**سأتقنبل**" مثل باقى القنابل .. وأنفجر .. نعم لابد وأن أنفجر ! لكن الآن .. علىّ مقاومة الصدأ الذى أكل الكثير من ذراتى .. فلأتماسك لأحتفل مع ولدى البارود ومعطفى المعدنى بنجاحنا .. سيكون نجاحًا هائلاً .. غير متوقع .. وسأكون قنبلة مثالية .. فقط لو تنزاح

هذه التلال من فوقي.. ألا تسأم تلك الكائنات المتحركة من بقاء الأمور دون تغير؟ ألا يضايقها هذا الموات الذى حولها؟ كائنات خاملة كسولة.. ما فائدة حركتهم إذا لم يستخدموها في تحريك الثوابت؟ فقط لو أرى النور .. إذن لأريتهم كيف..

"طك" !

آه.. ما هذا؟ هل أحتمل أنا الصدئة هذا الكحت في جدارى؟

" طك .. طك "

أحقًا هذا ؟

نعم .. ها هو التراب ينزاح .. النور يتسلل .. رغبة اللمعان تقاوم الصدأ.. هل سأبرق ؟ لا يهم .. المهم أن أنجح ! هكذا تكون الحركة.. أسرعوا .. أنقذونى .. نعم .. بتلك الأدوات الصغيرة.. جميل منكم أن تركتم الفؤوس والمعاول.. النور والهواء .. آهٍ .. كم طالت الرقدة .. استيقظ يا ولدى البارود .. وأنت يا معطفي المعدنى انفض عنك تراب الفشل.. سنكون مَحَطَّ إعجاب الجميع .. وسيكون وجودنا كريمًا.. هيا لنكافئ منقذينا .. ونجعلهم أول من يرون نجاحنا..

"بوووم"

دم .. دخان .. صراخ .. تراب ودمار ..

ياولدى البارود .. يا معطفي المعدن .. ما لكما قد تناثرتما هكذا ؟ كيف إذن سنحتفل بوجودنا الكريم ؟!

سبتمبر ٢٠٠٠

أمــل ..

عـادت أمـه حـاملة حقـيبـة المدرسـة المستـعـملة فتناولـهـا فى لهـفـة .. عـزف الفؤاد لحن الرضـا .. ولم تُعِر العينان اهتـمامًا كثيراً للون الحقيبة البـاهت ولا للخيوط التى تنسلت من جراء غسلها بفرشاة البلاط ..

فتحها فإذا بها قميص مجعد وحذاء متسخ .. أسرعت الأم تقول إنها ستغسله وإنه سيصبح كالجديد .. هز رأسه موافقًا .. ومن الكرتونة أحضر "البنطلون" الواسع الذى جئ به أمس .. ولبسه .. ثم لبس القميص .. وأدخل قدميه فى الحذاء المتسخ وحمل الحقيبة .. خطا خطوات ليجرب نفسه كتلميذ .. فتحت المكدودة ذراعيها فارتمى فى حضنها .. تسربت الراحة إليها فتنهدت وقبلت جبينه وخديه ..

على باب المدرسة ثنت الأم ركبتيها .. تطلعت إلى عينيه الباسمتين .. أخرجت من الكيس الذى تحفظه فى صدرها قلمًا

وممحاة .. بَرَّدَتْ صيحته الضاحكة سخونة قلبها اللاهث .. مسَّدَتْ شعره بكفها الخشن .. تمتمت داعية قبل أن تتركه .. جرى متقافزاً .. مستبشراً .. ممسكًا قلمه الجديد بيمناه .. دون أن يلحظ أن أمه لم تشتر اليوم سوى رغيف واحد وقرصين من الطعمية كلها معه فى حقيبته الآن !

سبتمبر ٢٠٠٠

للكلاب ذاكرة

بشعور ثقيل خطوتُ للخارج .. غادرت مكمني وسعيت مبكرًا .. الشمس تلقى حرارتها الواهنة على ظهرى البارد .. أحاول أن أجد فيها مذاق الأمن ككل يوم فلا أجده .. انتهت سهرتنا أمس بعد انقطاع جميع الأصوات .. اللهم إلا صوت تلك الأشياء الزاعقة النافخة للهواء الأسود والتى لا تكف عن الانطلاق فوق الأسفلت .. لكن كثافتها كانت قد قلت كثيرًا بحيث صار فى مقدورنا أن نعبر الطريق ونتشممه بل ونرقد أحيانا على الأسفلت الدافئ .. وحين نسمع من بعيد هدير نافخة الهواء الأسود نشرع آذاننا .. ونرفع رءوسنا .. ونمد قوائمنا الأمامية ونحن رقود فى عرض الطريق .. ونحدد بُعدها عنا لنتخذ السرعة المناسبة فى الفرار .. وعادة نفر فى الوقت المناسب .. وقد يلوح لأحدنا أن يتربص بها حتى تجاوره فينبح بشراسة مندفعًا نحوها لكنها حين ينهى قفزته تكون قد تخطته .. لم تكن تلك التصرفات تروقنى .. فهى دائمًا تعنى

لفت نظر إحدى الرفيقات إلى النابح الشرس .. وهو أسلوب آدمى مُراءٍ لا يتفق وأخلاقياتى ..

***

حرارة الشمس تحاول النفاذ عبر فَرْوى البنى .. وأحاول استشعار الأمان فلا أستطيع .. توقفت ألهث وأرقب ازدحام الشوارع .. تلتقى عيناى أحيانا بعينين آدميتين حنونتين .. نتبادل وداً لا يدوم إلا ثوانى حتى أعبر صاحب العينين أو يعبرنى .. توقفت أبحث فى عيونهم عن الراحة .. لاشىء اليوم إلا النظرات الباردة .. أحتاج لدفقة حنان تخلصنى من قلقى .. يالعيونكم القاسية !

***

استأنفت سيرى .. ذيلى مقوس لأعلى فى كبرياء وأقدامى تتلاحق فى رشاقة .. قالت لى : أنت أجمل ذكور الجماعة ! وكانت تمنحنى دائماً الفرصة لأعبر لها عن مشاعرى فى جميع الليالى التى سهرناها .. فكنت دائماً الأقرب إليها والمستمتع بأكبر قدر من عبيرها الأخاذ .. نظراتها تُغْرِقُنِى رقة بينما تزوم مهددة إذا اقترب منها غيرى .. لا أحد سواها يستطيع إخراجى من قلقى .. تُرى أين تذهب فى أثناء النهار؟ كان يجب على أن أسألها !

***

مازلت منقبض الصدر رغم تمام إشراق الشمس .. ورغم

الدفء الواهن . . ورغم نظرات الأطفال ذوى العيون الطيبة التي مسحوني بها وأنا أبحث عنها . . سألتهم وأنا أهز ذيلي إن كانوا قد رأوها . . لم يفهموني . . هززت ذيلي مودعًا مستأنفًا بحثي . . لماذا نفهم البشر ولا يفهموننا ؟

***

الليلة الماضية لم نفترق . . انفصلنا عن الجماعة نتمشى في ضوء القمر . . قالت لي إنها تفكر في هجر ملاذها الحالي تحت غطاء أقفاص الفاكهة حيث تبيت لتأتي وتبيت معي . . رقص قلبي رغم أنني ليس لي مسكن دائم لتشاركني إياه . . مسحت "بوزي" في وجنتها ففتحت فمها وعضت بأنيابها الجميلة عنقي وجرت . . جريت وراءها وتبادلنا العض والخمش . . هو الحب ولاشك !

***

من الشرفة كانت الصغيرة تطل . . ذيلاها اللذان تربطهما بشريطين أحمرين يتدليان خارج سور الشرفة . . وقفت أرنو إليها وأهز ذيلي ككل يوم . . جرتْ للداخل وعادتْ حاملة خبز الصباح . . ألقته فازدردته سريعًا ورميتها بنظرة شكر وانحناءة سريعة بالعنق وجريت أبحث . . جاءني صوت أمها تعاتبها لأنها جعلت البيت قِبْلةً لكلاب الشوارع !!

لست أدرى من الذى قسمنا هذه القسمة : كلاب شوارع وكلاب بيوت ؟ لو يعرفون نظرتنا لكلاب البيوت هذه ؟

خاصة ذلك الكلب الذى يحمل ملامح الذئاب .. لو يعرفون رأينا فيه ما آووه متباهين ! الذئب لدينا نحن الكلاب سُبَّة .. نسب بعضنا قائلين : يا ذئب ! فسلوكه أحط سلوك وملامحه أقبح ملامح .. وهو أدنى منا درجات ودرجات .. يخافنا ويتجنبنا .. ونحن نقف له ولأخلاقه المنحطة بالمرصاد .. لست أدرى ماذا يعجبهم فى الذئاب ليؤووا الكلاب القبيحة التى تشبهها ؟ ولست أدرى كيف يكرهون الذئاب ويحبون أشباههم ؟ غريب أمر هؤلاء البشر !

***

قد أجدها فى الأرض الخلاء التى نجتمع فيها ليلاً مع أصدقائنا .. نشطت لهذا الاحتمال .. تلاحقت خطواتى .. امتزج شعورى بالقلق بشعورى بالثقة فى أننى سأجدها هناك .. فوجئت به أمامى .. هو نفس الولد الذى ما إن يرانى حتى يقذفنى بحجر يدق عظامى .. انفجرت فيه نابحًا قبل أن يتمكن من الإمساك بالطوبة التى انحنى ليلتقطها .. فر من أمامى هو وزميله .. لاحقتهما حتى تواريا فى مدخل بيت .. تربصت بهما فى الخارج .. قال له زميله :

- الكلب عرفك .

فرد عليه :

- ليست للكلاب ذاكرة !

ربأت بنفسى عن الترصد لطفل محدود الفهم .. عدت

أبحث عنها .. زادتنى المطاردة توتراً .. وازددت ثقة بعشورى عليها .. أشعر بهما خلفي .. يتبعاني .. يزجيان الوقت بملاحقتي .. لن أنشغل بهما ما داما لا ينويان قذفي بالطوب .. مشاعرى المبكرة أنبأتنى بذلك !

***

في الليلة القمرية الماضية دعتني للذهاب معها إلى مسكنها تحت غطاء الأقفاص أمام دكان الفاكهي .. قلت لها : غداً ! لماذا لم أذهب معها ؟ حين تركتني وقفت أتابعها .. توقَّفَتْ مرتين تنظر إلىّ ثم أكملت سيرها حتى انثنت نحو شارع جانبى .. ربضْتُ تحت سيارة وأخذت أجتر عذوبة صحبتها .. وأستنشق بقايا رائحتها على فروى .. وأسترجع جمال الليلة الفائتة .. لكنى اليوم صحوت منقبضاً .. فسعيت للقياها قلقاً ..

***

الطريق الأسفلتى ممتد تحت ضوء الشمس الشتوية المهزومة .. وعلى مرمى البصر ترقد الأرض الخلاء التى تجتمع فيها .. سأجدها هناك .. مشاعرى المبكرة تؤكد لى .. رفعت رأسى وأشرعتُ أذنىّ وقوست ذيلى أكثر .. لحظة اللقاء قادمة .. خطواتى تقربنى منها .. والقلق ينهشنى !

لاحت من بعيد على الحافة الأخرى للطريق .. مشرعة أذنيها الرائعتين مسدلة ذيلها الناعم رافعة أنفها تتشمم قدومى .. لمحتنى .. جرت عابرة الطريق .. مشاعرى المبكرة

لسعتنى .. جريت أصرخ نحوها .. نبحت ملء حنجرتى .. طرت إليها .. كانت أسفل هذا الشيء الذى ينفث الدخان الأسود .. تشممتُها .. لعقتُ عنقها .. رفَعَتْ رأسها نحوى.. لم تقدر أن تمنحنى نظرة من عينيها العذبتين .. أعادت رأسها إلى الأسفلت .. من بين المتجمعين قال الولد إنه مشفق على .. فرد قاذف الطوب :

– سينسى فوراً .. ليست للكلاب ذاكرة !

***

جروها من ذيلها وتركوها على التراب بجوار الأسفلت .. ربضت بجوارها .. خواء تام يملؤنى .. نهضتُ .. أقدامى تخطو نحو لاشيء .. مررت بهما فإذا هما يقذفان كلباً آخر بالطوب .. بينما الضياع يُغَيِّبُنِى عن نفسى !

يناير ٢٠٠٠

كنت ميتا

لم أبْدِ تأثراً حين زاحمنى فى بيتى .. فقد كنت ميتًا !!
وهل يستطيع الميت أن يقاوم .. أو أن يرفض ؟
قبع منكمشًا فى ركن الصالة .. ينظر إلى .. خلف نظراته القلقة تكمن نظرات ترصّدٍ وتَحَيُّنٍ .. تضايقنى .. ولأننى ميت لم أستطع أن أرفض ..
فرد ساقيه وهو يترقب رد فعلى .. ولما بقيت ساكنًا عقد ذراعيه وأسند رأسه للحائط وتنهد ..
نهض .. ضايقنى نهوضه .. ضايقتنى قامته المشدودة الواثقة .. خطا متجولاً فى بيتى .. حذاؤه يطبع آثارًا قذرة .. والبيت الذى حافظت عليه نظيفًا دومًا صار قذرًا .. اشتد ضيقى .. لكننى ميت .. لم أستطع محو آثار قدميه .. ولم أستطع طرده !

***

لما قالوا : إننى متٌّ اندهشت !

أنا أرى كل شيء .. وأسمع كل صوت .. أفرح وأحزن .. أرضى وأغضب .. كيف أكون ميتاً ؟

قالوا : حين يفشل من حولنا في التقاط أصداء الحياة التي بداخلنا نكون قد متنا !

جميع الموتى يحسون .. جميعهم يسمعون .. جميعهم يتعبدون .. لكنهم موتى .. وماهى إلا ساعات أو أيام .. حتى يضيق الجسد بالحياة المقهورة داخله .. فينهشه غلها .. ويتآكل ويتحلل !

منتظر أنا أن أتحلل !

***

بدأ يحرك قطع الأثاث في بيتي .. يعيد ترتيبه كما يروق له ! هذا الكرسى الذى كان أمام الشباك .. لا يمكن أن يوضع في تلك الزاوية المظلمة .. كيف أقرأ إذن ؟ والمنضدة بجوار الحائط نقلها وسط المقاعد ليصطدم بها الرائح والغادى ! أغلقَ شيش النوافذ - رغم سطوع الشمس - وأضاء النور الكهربائي .. الجو خانق .. رائحة غريبة تملأ البيت .. حمل الشاكوش ودق المسامير في باب الشقة ليثبت "ترباساً" ضخماً .. "الترابيس" ملأت النوافذ والأبواب .. صار البيت الهادئ الرحب الآمن مزعجاً .. كيف يجرؤ على التصرف وكأنه بيته ؟ كيف يتجاهلنى ؟

وتذكرت أننى ميت !

***

بدأ يستقبل الزوار .. يجلسون في الصالة .. يرحب بهم في "بيته" ! وأنا أكاد أتميز من الغيظ .. لكنني ميت !

حين قدم لزواره العصير الذى استخرجه من ثمار حديقتي أثنوا عليه .. فباعهم باقي الثمار .. وأشجارى التي زرعتها مازالت حية .. وستظل تمنحه خيرها ليبيعه ويغتني !

آثار أقدامه غطت أرض الصالة والمطبخ والحجرات بالقذارة.. لكن مفتاح حجرة المكتب في جيبي .. ولن يدخلها أبداً !

مازلت أنتظر التحلل !

لِمَ لا يدفنني؟ هل يتلذذ بمتابعة عجزى؟ هل يخشى أن أفر من قبرى فيستبقيني هنا أمام عينيه ؟

عجزتَ يا هذا أن تكون غراباً !

***

بدأت خطواته تتباطأ أمام باب حجرة المكتب .. أحياناً كان يقف وينظر إليه .. وفي إحدى المرات انحنى ونظر عبر ثقب المفتاح .. ثم اعتدل ناظراً إليّ في وجل.. لكنني كنت ميتاً ! أمسك مقبض الباب وحركه .. "بعينك" .. المفتاح في جيبي ولن تدخلها .. تجول في كل الحجرات .. خرج للحديقة .. عاد للصالة .. جلس في مقعدى الوثير .. قام سريعاً ..

الحجرة المغلقة تسيطر على تفكيره !

لما حكت لي جدتي حكاية الوحش المتنكر .. الذى سمح لمن سكن قصره باستغلال جميع الحجرات ما عدا حجرة واحدة.. أعجبتني الحكاية .. واستبد بي الفضول لأعرف ما بداخل الحجرة المحرمة !

لم يعد يفعل شيئاً إلا الجلوس أمام باب حجرة المكتب التي أحتفظ فيها بكل وثائق البيت.. عقد شراء الأرض.. وتاريخ بنائه.. وأسماء الأجداد الذين قطنوه..هذا البيت هو تاريخ أسرتي.. وهذه الحجرة المغلقة هي خزانة التاريخ.. ومفتاحها في جيبي.. لكنني ميت ! ورغم كوني ميتاً كان يخشاني.. يحوم حول باب الحجرة ويرمقني.. يمد يده لمقبض الباب ويرمقني.. ينظر عبر ثقب المفتاح ويرمقني.. م يخاف هذا الرعديد ؟

***

اندهشت حين أتى بالصندوق الخشبي .. حملني .. ألقاني فيه .. وضع غطاء الصندوق ودق المسامير .. مسامير كثيرة.. رأيت أصابع يديه ترتعد .. سمعت لهاث أنفاسه .. دفع الصندوق حتى الحديقة.. أسقطه في الحفرة.. ردم عليه التراب.. صوت اصطكاك أسنانه يغطي على صوت الجاروف..

جرى إلى البيت.. حمل الشاكوش والإزميل ليكسر مقبض

الباب .. دقات قلبه تتسارع .. ها قد جاءت اللحظة التى تمناها طويلاً .. سيكون سيد البيت .. كل البيت .. جميع الوثائق والعقود ستختفي .. سيطمس التاريخ ..

ضحك بظفر لما انفسخ الباب

***

وحين خطا للداخل كنا جميعًا قد فررنا من قبورنا بعد أن صرنا وحوشًا .. نترقب دخوله حجرة المكتب !

فبراير ٢٠٠٢

حـــوار

كـان أصـيـلاً حـارًّا قـذفـه الصـيـف فى بدايات الربيع .. فـازدحـمت الشـوارع ..وفُـتـِحَت النوافذ وأطلت منهـا أذرع وأوجه..

وهى قابعة فى مقعد سيارتها الأمامى .. تنتظر زوجها الذى يبتـاع لهـا الفـاكـهة التى تاقت إليها فى بداية حملها .. بينما وقفت السيارة فى مدخل شارع جانبى ضيق وقصير يصل ما بين شارعين أكثر اتساعًا فى منطقة هادئة من المدينة الصغيرة ..

***

جذبها الصوت المناغى .. فانصرفت عن تأمل "سبائط" الموز المعلقة لتتـأمل الوجـه الأبيض المستـدير المطل من فـوق كـتف أمـه.. والكف البض المتـحـرك لأعلى ولأسـفل فى إشـارات ودودة.. بدأت النظرات جولتهـا لتـمـسح المشـهد .. الرأس الملفوف بطرحة شحبت ألوان الزهور فيها .. والثوب القطنى الخفيف الذى لا يشف عن شىء من تفاصيل الجسد لتَدرُّعه

بثوب آخر تحته .. و"الشبشب" المفلطح الذى رق كعبه لكثرة الدوس والخطو .. الذراع الأيسر يحمل الصغير المطل من فوق كتفها والذراع الأيمن يتحرك أمامًا وخلفًا بينما كفه قابضة على "باكو" شاى ! فى آخر بيت فى الشارع القصير ومن شرفة عالية تدلى سبت معلق بحبل .. حين وصلته الأم وضعت فيه "باكو" الشاى واستدارت فتمكنت صاحبة السيارة من رؤية وجهها القمحى وابتسامتها المتوددة التى أشرقت حين بدأت تتحدث مع الفتاة الممسكة بالحبل من الشرفة .. رغم زجاج السيارة المفتوح لم تستطع سماع صوت الأم .. لكنها الآن ترى وجهها وظهر الصغير المستند بمقعدته إلى ساعد أمه والذى يدفع قدميه الصغيرتين فى توافق مرح مع ذراعيه .. ورغم بعض الثقوب فى ملابسها إلا أنها أعجبت بنظافتها .. وحين كانت الأم تشير بأصابع يمناها لتعبر عن أعداد معينة "اثنين" أو "ثلاثة" أو تفرد الكف بالكامل لتقول "خمسة" لاحظت صاحبة السيارة نظافة كفها أيضًا ..

فى نفس الوقت لاحظت الأم أناقة هذه السيدة بالسيارة .. وبدأت تخطف نظرة وأخرى نحوها وهى تتحدث مع الفتاة الممسكة بالحبل .. قالت لنفسها "**هى جميلة .. وغنية**" .. وافترت شفتاها عن ابتسامة تبوح بإحساسها بالفرق بينها وبين الغنية التى سارعت عيناها بالفرار حين فوجئت بالأم تنظر إليها .. بينما كانت نظرات الأم المتدفقة إعجابًا تزداد فحصًا

وتأملاً .. أحست من فى السيارة أن الأم واثقة من نفسها وأنها أمينة لا تختلس النظرات .. نقلت الأم طفلها إلى ساعدها الأيمن وارتدَّت برأسها للخلف قليلاً تنظر إليه ثم أمسكت خده بيسراها والتهمت قبلة من فمه فازدادت ضربات قدميه وكفيه سرعة ومرحًا .. فاحتضنته بذراعيها الاثنين .. اعتدلت الأخرى في جلستها مستعذبة شوقها الجارف إلى مولودها الكامن بداخلها واشتهت هي الأخرى قبلة من شفتيه الناعمتين..

بدأت السلة ترتفع .. وخطت الأم عائدة من حيث أتت .. خطواتها المنتظمة الثابتة أعجبت صاحبة السيارة .. قالت لنفسها : "**إن الأحذية الواطئة تجعل الخطوات أكثر ثقة**" .. وقررت أن تستخدمها .. بينما قالت الأم : "**إن السيارة شيء جميل وما على المرء إلا أن يجلس هكذا وهي تجرى**" ! وكانت تلوح بساعدها محيية بعض المارة في بساطة جعلت راكبة السيارة تتخذ قرارًا جديدًا بالخروج على قدميها من آن لآخر .. لقضاء مصالحها وشراء لوازمها .. فهذا يجعلها أكثر حيوية وتجاوبًا .. لكن الأم كانت تتمتم داعية الله لولدها المطل من فوق كتفها أن يجعل حظه أوفر من حظ أبيه .. وأن يرزقه بمثل هذه السيارة .. وأن يجعله "سيد الناس" !

حين ضاقت المسافة بينهما .. قبضت الأم على ثوبها وحاولت ضمه تحت وليدها لتدارى ثقوبه .. بينما كانت

الأخرى ما تزال مستمرة فى اتخاذ القرارات .. لأنها لاحظت أن الألوان الباهتة أرق وألطف كثيراً من الألوان الصريحة !

ولما صارت على بعد يسمح برؤية خطوط الوجه وتفصيلاته.. تَذَكَّرَتْ الأم أنها نسيت أن تمر "بِمِرْوَدِ" مكحلتها اليوم على عينيها .. وقالت لنفسها إنها لابد شاحبة باهتة .. وألقت بنظراتها أرضًا .. بينما كان أحدث قرارات صاحبة السيارة أن تخفف من استخدام مساحيق التجميل خاصة حول عينيها !

فى تلك اللحظة .. كانت الأم قد وازت السيدة فى السيارة.. واتصل خيط شفيف من الراحة والعذوبة ليجمع بينهما ..

مارس ٢٠٠١

ترويض !

المِعْزَى السوداء كانت تشرد دائمًا .. تخرج عن حدود الطريق .. وتقضم بعض الأعواد من الحقول المزروعة .. ورغم مراقبتي لها كانت تغافلني وأفاجأ بها وفي فمها أعواد من البرسيم أو الذرة ! الغنمات الأخرى صارت ترمق بعيونها الجائعة الغيطان التي تكتنز اخضراراً .. وتنحرف قليلاً في خطوها للاقتراب منها مادة شفاهها نحوها !

لكن الآن .. القطيع كله ما عاد يتطلع نحو الأعواد الخضراء .. وأصبح يكتفي بالجذور الجافة .. فقد ذبح أبي المِعْزَى السوداء !

أكتوبر ٢٠٠٠

لحظة صدق !

مكبرات الصوت تنشر ما يدور داخل القاعة فى أنحاء القرية..

فى الصفوف الأولى من القاعة يجلس بعض المُهْتَمِّين .. يليهم بعض الفضوليين .. يليهم بعض اللاهين .. وعلى منصة طويلة طويلة جلس الضيوف اثنين اثنين.. عن طريق الصدفة.. أو غير الصدفة !

الأطفال فى الخلف يحتدون فى مشاجرة جماعية .. يجرى وراءهم خفير بعصاً طويلة فيفرون للخارج .. يزعق شاعر فى ميكروفون جانبى متعاطفاً ـ بلسانه ـ مع أطفال الانتفاضة .. بينما ذهنه مشغول بتدبير وسيلة مواصلات للعودة به من هذه القرية النائية إلى مدينته ..

نساء القرية ـ اللائى جىء بهن ليملأن المقاعد الشاغرة ـ يذبن خجلاً حين تلتقى أعينهن البكر بأعين الضيوف..

ينكمشن متواريات.. يتلهين بجذب صغارهن والضحك العفوى ..

عضو مجلس الشعب ينتهز فرصة التجمع الثقافى ليذكر الناس بنفسه .. يلوح بذراعيه .. ينهض كل دقيقتين لينحنى ويضرب "تعظيم سلام" ..

كبير الضيوف يدون في ورقة أمامه كلمات ويخط خطوطًا.. وجارته الحالمة ترميه بسهام عينيها الناعستين فتصيبه بوخزة عشق صائبة ..

مقدم الحفل متشبث بالميكروفون ولا يسمح لزميله بالمشاركة فى التقديم ..

المقاطعون للأمسية الثقافية معتصمون أمام باب القاعة غضبًا لأنهم لم يُدْعَوْا لتناول الفطير مع ضيوف المنصة !

اكتظت الليلة شعراً وغضبًا وعشقًا ونفاقًا و ... كل شئ!

وتحت المنصة كانت الخنفساء مطروحة على ظهرها .. تحرك أطرافها فى ألم .. تختنق .. تمر بحدث جلل : تموت !! لتتولد فى القاعة لحظة صدق وحيدة فى تلك الليلة الصاخبة !

يولية ٢٠٠١

جَــدّى و... أنا

زأر أبى يومًا وحكى لى الحكاية ..

قال : إن جدنا البعيد البعيد كان يتبختر فى الغابات وفوق التلال !

سألته : ألم يكن يعيش فى قفص يا أبى ؟

تحشرج زئير لائم فى حلقه : ·

– من ذا الذى كان يجرؤ على حبسه فى قفص ؟

***

كنت أعرف مواعيد حكايات أبى .. فأجرى إليه .. أربض بجواره ساكنًا .. وبعد أن يستريح وتهدأ نفسه المعذبة يبدأ فى الحكى :

–كان جدك حاكمًا .. له تخضع الرعية .. ولرهبته يسود النظام .. ولعدله تحل الطاعة ..

نظرتُ إلى الكرباج الملقى هناك .. خـــارج القـــفص واندهشتُ !

- ألم يكن هناك من يضرب جدى بالكرباج ؟
غضب أبى غضبًا شديداً .. هز رأسه بحدة فاهتزت لبدته..
أطلق زئيراً مرعبًا جعلنى أتراجع إلى أقصى ركن من القفص !

***

بعد كل عرض أعرف أن موعد الحكى قد حان .. فأُسْرِعُ إلى جوار أبى العطشان للذكرى الحبيبة ..

- كان جدك أول من تسيد الأرض.. وعلم الآخرين النظام..
بدأت أفهم أن أبى يتداوى بالذكريات .. وكنت أرى عينيه العسليتين ترقان وتهدآن للحكى .. وتعلمت ألا أغضبه بأسئلتى الجارحة ..

- مملكة جدك كانت حرامًا على الآخرين .. لا يجرؤ أحد على المساس بطرف من أطرافها .. وإذا حدث وتجرأ طائش من الطائشين.. لا يحل المساء إلا ويكون قد استقر فى معدة جدك !

***

بدأت تنتابنى نفس النشوة التى تنتاب أبى .. كنت أنظر لزملائى ذوى الأجنحة والحوافر وأنفخ صدرى قائلاً لنفسى : **"أنا حفيد جدى"** .. وأخطر بكبر إلى أن يفجَأنى صوت المدرب فأعود "أنا" من جديد !

***

- كل يوم يخرج جدك للصيد .. يترصد الأسمن والأضخم لتشبع رعيته .. يأكل من الفريسة ما يشاء ثم يبتعد ليتقاطر

الباقون فينالون نصيبهم من اللحم الطازج الشهى ..

الحمير المريضة والنافقة هى طعامنا .. قال لى أبى : إن جدى كان يفضل لحم الغزال .. واندهشت للكلمة : "يفضل" ! يالها من كلمة غريبة !

***

لما نبتت لى لبدة .. وغلظ صوتى .. كنت قد تعلمت التراجع والخضوع والطاعة .. وأصبحت جاهزًا لأداء دورى .. وصرت أقفز خلال حلقات النار وأجلس كالقط فوق كرسى صغير وأنام على الأرض وأتمرغ .. وصرت أكثر احتياجًا لسماع حكايات جدى .. أجرى بعد كل عرض إلى أبى العجوز فيحكى ويحكى .. وأتداوى بالماضى ..

***

صرت نجمًا .. وصرت أفهم تصفيق المتفرجين وأنتشى له .. وأنتظر الوجبة الاستثنائية من لحوم الحمير التى أنالها كلما زادت حرارة التصفيق ..

واستمر فخرى واعتزازى بعراقة أصولى ! حتى وأنا أقفز من خلال النار وأزدرد لحم الحمير الميتة .. كنت أشعر بعراقة أصولى ! لكن أحيانًا ينتابنى شىء من الخجل !

ماذا لو رآنى جدى وأنا أُضَرب بالكرباج ؟

ماذا سيفعل لو رآنى أدخل القفص بأقدامى دون اعتراض ؟

***

أجـرى نحـو أبـى .. يرمـقنى بعـينيـه الكســيـرتين .. يدرك وقوعى فى فخ الطعام والخوف .. يكف عن الحكى ..

— احكْ لى يا أبى عن جدى .

– لا فائدة يا بنى .. لا فائدة .. ربما يكون أبناؤك . . .

ويصمت أبى فى تشكك ..

وأخرج للعرض .. أتأخر فى تأدية الحركات .. يكثر زئيرى ورفـعى لكفى مـشـهـراً مـخـالبى .. كل شىْء يثـيـرنى .. هذا الكرباج .. وهذه النار .. وهذا المدرب .. وقـبل كل شىْء هذا الخوف الذى يحتل كيانى ..

ماذا لو رفضت القفز ؟

وأقفز !

ماذا لو رفضت الجلوس ؟

وأجلس !

ماذا لو رفضت المرور نحو القفص ؟

وأمـر .. وفى أثناء مـرورى .. والغـضب يتـفـجـر داخلى .. ونظرة أبى تقـتلنى .. وتـاريخ جـدى يسـحـقـنـى .. اعـتـرضنى شىْء .. أطبقت عليه فكىّ .. قضمته .. فتته .. أكلته .. فى ثورة غضبى اجتاحتنى الأمنيات .. سأكون حفيد جدى .. لكننى بعد لحظات رأيته ما زال هناك .. بساقيه الاثنتين كاملتين .. وفى يده الكرباج !

فبراير ٢٠٠٢

غبـاء!

صرخت النملة العاملة فى وجه النملة الملكة :

- لا تتغطرسى ! فبدوننا ليس لملكك وجود !

ارتجفنا .. هى المرة الأولى التى تواجَهُ فيها الملكة بالحقيقة..
النمل الحارس التفً حول الملكة .. تلقى توجيهاتها .. وبعد دقائق كنا نحمل جثث النمل العامل إلى خارج الجحر !

فى اليوم التالى خرجنا للسعى بدون أدلاَّء .. فقد قُتلوا أمس .. تفرقنا فى الأرجاء .. تشابهت الدروب علينا .. ولم نعرف للعودة طريقًا !

بينما بقيت النملة الملكة وحيدة فى الجحر .. تتضور جوعًا !

أكتوبر ٢٠٠٠

سعيد !

"وأنا عائد فى المساء سأشترى حذاءً "بلاستيك" .. الجو صار باردًا .. وقدماى المنقوعتان فى الماء طوال اليوم يمضُّهُمَا الألمُ ليلا فلا أنام .. هل الوقت متأخر ؟"

– صباح الخير يا عم عبده .. كم الساعة ؟

جرى حين سمع الرد

"غيْمُ الشتاء المقبل صار يخدعنى .. لن ألحق معظم السيارات .. كلها بالطبع طلعت على الطريق" .

الفوطة الصفراء على كتفه ويده تمسك بالصفيحة السوداء.. وقميصه الذى فرده على ظهر الكرسى الخشبى أمس ليجف لم يجف .. لا هو ولا "البنطلون" الذى شمر رجليه المتآكلتين ..

هجم على السيارة "البيجو" بفوطته المنداة .. لم يعبأ بالصياح الذى أتاه من وراء سيارة أخرى .. وأسرع "بدلق" صفيحة المياه عليها ليثبت حقه فى تنظيفها .. وبدأت كفه

السمراء تدور بالفوطة فى انفعال ..

لملم أرباع الجنيهات ودسها فى كيس "بلاستيك" ليحميها من بلل ملابسه .. حمل صفيحته وفوطته بعد أن خلا الموقف من السيارات .. وأسرع إلى الميدان القريب .. انجذبت عيناه للسيارة السوداء الطويلة العريضة .. ذرات الغبار عليها تستفز أنامله .. يروح ويجيء بجوارها ..

"أين صاحبك ؟ يركنك في الممنوع ويتأخر هكذا ؟"

يخط بإصبعه خطًا طويلاً على صاجها ويهز رأسه يمنة ويسرة .. يشق عليه أن تكون الجميلة معفرة ! يدور دورة فى الميدان ثم يعود ويختبر نظافتها من جديد ويمصمص شفتيه.. ينتظر صاحبها العظيم لينظفها أمامه بنشاط وإخلاص فينفحه نفحة عظيمة مثله !

"البخلاء فيهم كثيرون .. ربنا يستر"

عيناه تدوران .. تفتشان فى الميدان .. تقيسان الأشخاص ومن منهم يليق بأن يكون صاحب الجميلة !

"إذا سارت الأمور كما أتمنى سأشترى الحذاء البلاستيك لى وزجاجة الزيت لأمى .. منذ يومين وهى تتمتم أن الزيت نَفَدَ وأنا أتجاهل الرد وهى تتجاهل تجاهلى !"

ينتفض كلما رأى رجلاً مهيبا أو امرأة ذات شعر مصبوغ .. يُنْزل فوطته من فوق كتفه ويتخذ وضع الاستعداد ..

أحيانا يجرى نحو بعض السيارات القريبة التى يركنها

أصحابها في الممنوع دقائق معدودة لشراء شئ عاجل .. يتظاهر بمسح زجاجها الأمامي .. وكثيراً ما تجرى السيارة هاربة من عين عسكرى المرور دون أن ينال مليماً !

***

"لا بد أن صاحبها عظيم ! راكن في الممنوع دون أى قلق .. نهارنا أبيض إن شاء الله"

كثرت الخطوط التي خطتها سبابته على الصاج الأسود .. صارت شبكة كبيرة متعرجة .. لا يضايقه رفض أصحاب السيارات لأن ينظف سياراتهم .. ولا يهتم كثيراً لتعبيراتهم المتأففة وإشاراتهم الجارحة له وكأنه ذبابة حطت على طعامهم .. يتطلع إلى الجميلة منتظراً الفرج !

"قلبي يحدثني أنها ستركن هنا كل يوم"

الصراع على تنظيف السيارات في الموقف صار مريراً .. أصبحوا يتشاركون في مسح السيارة الواحدة أحياناً ! كل من لم يجد عملاً حمل فوطة وصفيحة ..

"إذا صدق إحساسي وكانت هذه السيارة من نصيبي كل يوم سأدخر النقود وأشترى قميصًا .. أو جلبابًا لأمي .. أو سأشترى زجاجًا للنافذة التي كُسِرَ زجاجها فالشتاء قادم .. وقد يحتاج الأمر أن أغير الصنبور .. فأمي لم يعد أمامها إلا أن تتشاجر معه كلما فتحته لأنه لا ينقفل .. أو .. أو .."

شمس الظهيرة تتباهى بجبروتها على العباد حتى في أواخر

أكتوبر .. يرفع ذراعه كل دقيقتين ليمسح عرقه فى كم قميصه الذى جف تماماً وتصلب نسيجه كأنه ورق مقوى .. يرمق الفتيات كسجين خلف قضبان غليظة .. تخطى الثلاثين ولا يستطيع مجرد التفكير في الزواج .. الزواج يعنى تجويع شخص ثالث غيره وغير أمه .. وربما رابع حين تلد زوجته ! ثم من تلك البلهاء التى تتزوجه ؟ وأين هو المكان الذى سيقيم فيه؟ أهي حجرته فوق السطوح التي لا تحتوى إلا على حوض بدون حمام ؟ هو وأمه يستخدمان الحمام القديم في مدخل البيت .. حجرتهما في الطابق السابع والحمام في الأرضى !

ينظر إلى "شبشبه" الأزرق المقطوع .. يخلعه ويضعه جانباً .. يتخيل نفسه غدا بالحذاء البلاستيك المقاوم للماء .. لكن قبل الحذاء والجلباب والصنبور وزجاج النافذة لابد من الذهاب إلى طبيب العيون .. البياض يمتد إلى عين أمه .. غطى نصف الحدقة .. والقطرة التى صرفوها لها في المستشفى الأميرى لم تفعل شيئاً ..

"إذا أعطاني جنيها كل يوم سيكون معى آخر كل شهر ثلاثون جنيها قد تكفى كشف الطبيب والدواء .. والشهر القادم يحلها حلال" .

انتبه لخبط باب السيارة .. فوجئ بها تدور .. جرى نحو صاحبها المختفى معظمُ وجهه خلف نظارة شمس ..

"دقيقتين يا باشا .. أغسلها لك "

- كانت أمامك !

" دقيقتين يا باشا "

خلع الباشا نظارته وابتسم ..

سكنت حركة حامل الصفيحة لحظة وغاضت ابتسامته .. ثم سرعان ما استعادها باهتة ووضعها على وجهه .. نزل صاحب السيارة وربت على كتفه :

- اغسلها يا سيدى .. لكن كل يوم أجدها مغسولة حين أنزل من البيت .. لن أنتظرك ثانية ..

"نعم هو .. كان يجلس في المقعد الأول في الفصل .. اسمه : ... لا أذكر .. حين مات أبى كنا في الصف الثالث الابتدائي "

- العَجَل .. لاتنس العجل .

" أين ذهب كل هذه الفترة .. لم تقع عليه عيناى منذ كان في الإعدادى .. كنت أتابع أخباره وأخبار من كانوا زملائى .. متى توقفتُ عن تلك المتابعة ؟ متى نسيتهم ؟! "

الوجه منكفئ .. العينان لا تتطلعان إلا للسيارة .. لا تحتملان المواجهة ..

"لم أكن بليداً .. لكن : لابد وأن تترك الدراسة ! هكذا قالت أمي .. من سيعولنا غيرك وقد مات أبوك ؟ "

الوجه ينكفئ أكثر .. المرارة تنضح من ملامحه ..

"أحيانا كنا نلعب معًا .. وصرعتُه مرة فى نزال رياضى فى

الفناء .. قال لى : يخرب عقلك .. انت حلوف ! ضحكت بفخر : اسكت يا فأر ! جرى ورائى ولما لحقنى كانت أنفاسنا قد انقطعت فانطرحنا فى أرض الفناء ضاحكين ! "

- اغسل المرايا الجانبية .

" شيء مخجل ! جاهل .. قذر .. حافٍ .. متسول ! نعم .. متسول ! لكنى كنت أعرف أحيانًا إجابات أسئلة لا يعرفها هو ! "

تتعلق النظرات أكثر بالفوطة الصفراء فى حركاتها الدائرية.. العينان تحتاطان خشية التقاء النظرات وانكشاف المستور وضياع حلم الثلاثين جنيها ..

ألَحَّ فى مسح الزجاج حول الهلال الأحمر ..

"المشكلة ليست تفوقًا أو بلادة .. لكن .."

- قلت دقيقتين وأصبحت عشْراً !

- حاضر ..

"أبى تمنى أن أصبح طبيبًا .. لكنه مات .. التعليم كان مجانيًّا نعم .. لكن الحياة دائمًا بمصاريف !"

- ما اسمك ؟

- سعيد يا باشا !

ابتسما للمفارقة .. اسم ليس على مسمى

- أنت سعيد ؟

أومأ فى انكسار!

- ألا تعرفنى ؟

- عرفت سعادتك من البداية ..

- أين أنت الآن ؟

ابتسم فى مرارة وتلاقت النظرات بتعبيرات تراوحت ما بين الدهشة والانكسار ! .

امتدت كف بخمسة جنيهات .. تراجع الآخر ملسوعًا .. أصرت الكف على دسها فى جيب القميص الممزق الذى تراجع صاحبه فى إصرار مقابل ..

- والله لا يمكن يا باشا ..

- غداً إذن .. وكل يوم سأراك .. لا تنسَ ..

***

افترق صاحبا الطفولة .. أحدهما ينوى أن يتخذ من تنظيف السيارة ذريعة لمساعدة زميله .. والثانى عازم على ألا يطأ هذا المكان ثانية !

سبتمبر ٢٠٠١

عقـول!

عودان فقط من القمح نبتًا حين زرع الحماران بعض البذور.. واتفقـا :

"عـودٌ لى.. وعـودٌ لك.. لما تنضج سنابلهما نزرعهما.. فـتكثـر أعـوادنا ونصـبح ملوك الحـمـيـر.. هذا عـودى وهذا عودك!"

وفى أحد الأصبحة فوجئ أحدهما باختفاء عوده .. وعثر على بقاياه بين أسنان رفيقه .. وقرر أن ينتقم ! .. وانتقم !

ثم عـاشـا عـمـريهـمـا يهـيـمـان فى الأرجاء بحثًا عن عـود ليأكلاه.. ويحلمان ببعض البذور ليزرعاها !

أكتوبر ٢٠٠٠

يا قاتل الشجرة !

هى .. رغم كونها شجرة .. أدركت كم صارت قبيحة !
ولأنها شجرة .. لم تستطع مطاردة مجهضها .. وظلت مغروسة فى مكانها ..

لم ير دموعها التى تسيل .. ولم ينتبه لنزف عصارتها المتحدرة .. كان يمد يده للفرع .. يبسطها ويقبضها ليتأكد أنها فى المكان الصحيح .. ثم يجذبه لأسفل فجأة .. يكسره .. يظل الفرع معلقا باللحاء .. يطوحه يمينًا ويسارًا فى جنون .. يتراجع جاذبًا الفرع المسكين .. نازعًا لحاء الأم .. محدثاً جرحًا طويلاً على ساقها ..

يتراجع قليلاً .. يرمق الشجرة بنظرات لامعة ثائرة .. يتقدم .. يختار غصنا آخر .. يجذبه .. يرتاح حين يسمع الصوت : "طق" ! يبدأ فى سلخ الجلد اللحائى المتصل به !

يتوالى نزع الفروع .. وسلخ اللحاء .. ترقد الأفرع حول ساق الأم المكلومة وتحتضر .. يدوسها ذهابًا وإيابًا ..

تقف الشجرة بفرعين أكتعين كأنهما قرنان .. بينما أعناق الفروع المذبوحة "مشرشرة" مشوهة نازفة ..

لم يعد هناك ظل أو خضرة ..

والحر بجوار الجذع المسلوخ لا يقل عن الحر فى نهر الطريق حيث الشمس تنقر الرءوس ..

والغادى والرائح لم يعد يجد مظلة فروع خضراء ليقف تحتها ..

وفى طقس هندوسى تم جمع الفروع القتلى وحرقهم .. وبعثر الهواء شيئًا من رمادهم ففتحت الأم مسامها لتتلقى فيضًا أخيراً من وصال الأحباء .. حملت بقايا رمادهم على بقايا فروعها وأوراقها ..

بقايا الماء تتساقط من الغسيل المنشور على ذرات الرماد الحبيب .. تجرفها نحو الأرض .. رائحة الماء المحملة بعطر مساحيق الغسيل تزعج الأم المكلومة التى لم تعد فروعها تطول أطراف الغسيل المبتلة .. حتى الماء لم يعد ماء ..

الأوراق المتناثرة حول ساق الأم .. والتى أفلتت من الطقس الهندوسى .. بدأت تذبل .. تموت ظامئة حول ساق الأم المليء بالحليب ..

لما جاءت الأمطار .. غسلت كل ما تبقى من رائحة الأبناء المذبوحين .. ونمت أجنة الخضرة مرة أخرى .. وانبثقت براعم يانعة .. وراحت الأفرع تتنامى وتمتد متدفقة نضرة ..

لكنها أصبحت تطول أطراف الغسيل المنشور !!

***

ضـربات البـلطة فى الجـذع تفـتت خـلاياه .. والفـروع يلوذ بعضـهـا بالآخر عـند كل ضـربـة فى تشابك مذعور .. وحفيف الأغصـان أنين لا يفهـمه البشر ..

ولأنها شجرة لـم تفر ..
بل ظلت صـامـدة فـى مكانهـا .. أوَلَيْس هذا مكانهـا ؟ أوَلَمْ تكن هى قبل أن تكون كل هذه البنايات ؟

البلطة تكسر خشب الجسد الحى ..
ثم "فووو" .. تهـوى العظيـمـة الخـالدة حـاملة أبناءها على رأسـهـا .. تاركـة جـذرها فـى الأرض .. يحـاول أن ينبـت من جديد !

يونيه ٢٠٠٠

غُـرْبَة

بيع العجل الصغير ..

وضعوه فـي حظيـرة نمـوذجيـة .. وخوار جيـرانه العجول يمـلأ الفـضـاء من حـولـه .. اشـتـاق لنهـيق الحـمـار ونقـنقـة الدجاجات وثغاء الخروف .. ولأنـه لـم يكن يمتلك مـرآة .. ظن نفسه غريبـاً !

يناير ٢٠٠١

أخ!

عبد العليم صابر مرزوق.. من كفر النعمان.. إحدى قرى محافظة الدقهلية.. تخرجت في كلية العلوم جامعة المنصورة عام ألف وتسعمائة وتسعين.. وجُنِّدْتُ في نفس عام تخرجي..

شاء حظي - التعس أو السعيد لا أدرى - ألا يخترق رصاص زملائي صدري .. فقد رفع قائدي - الضابط الشاب - يده .. وصرخ صرخة جمدت السبابات على أزندة البنادق فنجوت من القتل لأنتظره من جديد ..

فترة تجنيدي كانت في نصفها الأخير حين امتلأت الدنيا بأنباء الاجتياح .. وانهمرت على شاشات التلفاز صور الحرائق والطيور المغموسة في زيت البترول .. وانتشرت الروايات تلهب المشاعر وتطالب بإعادة الحقوق لأصحابها .. وتناثر المشردون في بلاد الله ..

***

"كل أخ عربى أخي .. شرف دم وجوار
فكفاحنا وحده نبى .. كان أبا الأحرار"

صغيراً .. في طابور الصباح .. أقف فى فناء المدرسة وأنشد.. وتنتابنى الحماسة فيرتفع صوتى حاداً .. ويصك نشازى أذن مدرس الموسيقى فيلكزنى بعصاه في ظهرى .. ينخفض صوتى لحظات ثم أتحمس من جديد ..

كل أخ عربى أخي ؟!

اقتتل الإخوة إذن !

وحين يقتتل الإخوة يُعلى أبوهم عصا التأديب ليرجعهم إلى حظيرة الطاعة .. بحثت عن أب يرفع عصا التأديب .. وانتظرت ظهور هذا الأب المختبئ .. لابد وأنه يترك أبناءه ليعلمهم كيف يُصَفُّون مشاكلهم بأنفسهم .. لكنه يراقب .. وسيتدخل فى الوقت المناسب ..

تذكرت أيلول الأسود .. والدماء المراقة .. وأباً يجمع الإخوة المتقاتلين في لحظات احتضاره ..

وها قد حَلَّ "آب" الأسود .. فأين أنت يا أبانا ؟

***

ونادى منادٍ فى العرب : **"إن أباكم قد ظهر" !**

جرينا إليه .. أجفل القلب حين رأيت عينيه الزرقاوين وشعره الذهبى .. تغربت في لسانه ..

الأعمام والأخوال ذوو العيون الزرقاء والشعورالصفراء والسترات العسكرية .. يَعِدُون بإعادة شىء لم يضع منا .. شىء لا نعرفه .. سألت نفسى : ما معنى الشرعية الدولية؟!

نظرت إلى أهلى الجدد .. حاولت استساغة لغة الكلام الجديدة فامتلأت غربة .. قاومت مشاعرى .. انصرفت إلى التفاصيل الصغيرة .. بشرتنا السمراء وبشرتهم التى ألهبتها شمس صحرائنا .. عيوننا السوداء العميقة وعيونهم المغمضة اتقاءً لأشعة الشمس المبهرة .. شَعْرُنَا الأجعد وشعرهم المسترسل .. أنوفنا وأنوفهم .. شفاهنا وشفاههم .. أقدامنا وأقدامهم .. واللسان .. آهٍ من لساننا ولسانهم ! أين هم منا وأين نحن منهم ؟ وهل يلد الدب القطبى حصاناً عربيًّا ؟!

"دافع دافع عن أهلك واخواتك ..
دافع دافع أرضك هى حياتك" .

أردد فى طابور المدرسة .. تنتابنى الحماسة .. أتصور نفسى جنديًا فى ميدان القتال .. أدافع عن إخوتى ضد الغادر الذى لم أستطع إطلاقا أن أتصور له ملامح أخرى غير العيون الزرق

والبشرة البيضاء والشعر الذهبي! ويحتد صوتي ويعلو ..
وتلكزني عصا مدرس الموسيقى فينخفض صوتي إلى حين ..

وأقاوم مشاعرى.. الإنسان هو الروح والوجدان.. الجسد ليس إلا وعاء ولا شأن له بما يحويه.. نعم.. وربما كان هؤلاء البيض ..."

تنقطع أفكارى .. تقفز إلى ذهني صورة من كتاب التاريخ.. مشنقة منصوبة في قرية .. معلق بحبلها فلاح أسمر.. وغيره مكبلة أيديهم .. وآخرون يجلدون على ظهورهم العارية .. وفلاحات وأطفال يجبرون على النظر لآباء يشنقون ويجلدون .. وجنود بيض ألهبت الشمس بشرتهم يحملون سلاحهم وينظرون بشماتة ..

وأظل أقاوم مشاعرى .. فالدنيا لاتسير على حال واحد .. وربما يصير أعداء الأمس أصدقاء اليوم ..

يتردد في ذاكرتي صوت أبى الصارم يوبخني لأننى تركت أخي يتعارك مع جارنا وجريت للدار .. ترتفع يده وتهوى على وجهي .. ويعود أخي .. ويدافع عنى .. وأتوارى في عشة الدجاج خجلاً !

أولم يكن من الأفضل لأهلنا الجدد أن ينطقوا بلساننا ؟
وتتحرق جوانحي ..

يا أبى أنا لم أترك أخى يقاتل وحده فقط .. وإنما أحضرت له من يقاتل ضده !

وأقاوم قناعتى .. تلك الملامح رأيتها فى كل مصيبة ألمت بنا ... لكنى أقاوم !

يعاودنى حديث أمى حين تشاجَرْتُ مع أخى ..

أخبرنى يا عبد العليم ماذا تقول حين تخزك إبرة فى أصبعك ؟

باندفاع طفل عرف إجابة سؤال أرد :

– **أقول " أخ "**

– أرأيت ؟ تستنجد أول ما تستنجد بأخيك !

يغيظنى الفخ الذى وقعت فيه .. وأندهش من هذه اللفظة التى تقفز على شفاهنا دون تفكير .. وأسأل نفسى عن لفظة الألم التى تقفز على شفاه الآخرين .. ولماذا لا ينادون إخوتهم بلغاتهم عندما يتألمون ؟ وأقتنع وأنا مازلت طفلاً بأن "الأخ" معنى عربى خالص .. لا يوجد له نظير فى اللغات الأخرى ..

***

جميعنا لانشعر بارتياح .. بالحلق غصة لانبلعها ولانستطيع أن نلفظها .. الأهل .. الملامح السمراء .. توجيهات الآباء .. وحكايات الأمهات .. وكتاب التربية

الوطنية .. آهٍ من كتاب التربية الوطنية .. والقومية العربية .. والجنود المرتحلين دفاعًا عنها شرقًا وغربًا .. آهٍ من وحدة الدين والهدف والمصير ..

وآهٍ من تلك اللحظة المرتقبة .. في غيبة أب يرفع عصا التأديب فيخشع له الأبناء ! وفي حضرة أب لا تحمل لغته كلمة "أخ" !

***

أنا "عبد العليم صابر مرزوق" . حين دار القتال لم أَدْر الوجهة التي أوجه إليها سلاحي .. صرخت أنادي أبي ليرشدني .. ولما وجدتني في صفوف يحمل بعض من فيها عيونا زرقاء .. جريت إلى الصفوف المقابلة هاجمتني طلقاتهم .. ألقيت سلاحي .. أتتني صرخة قائدي .. جروني جريحًا .. داوونى .. لأنتظر حكمهم فيمن عصى الأوامر في أثناء القتال !

يناير ٢٠٠٠

دهـاء!

لما طال تربص القط أمام مدخل الجحر .. توارى الفأر خائفاً في أظلم وأبعد بقعة فيه .. وعاش يقتات على ما كان قد ادخره طوال عمره .. ويتدرب على تقليد القط .. فكان يموء ويمسح رأسه تودداً !

وبمرور الوقت نسى القط لماذا كان يتربص أمام مدخل الجحر .. فانسحب فى كسل !

عندئذ خرج الفأر يموء ويتمسح تودداً !

ولم يُجْهِدْ القط نفسه بمحاولة تذكر تاريخه .. لكنه حين وجد وَكْرَهَ قد دُمِّرَ وخزينه قد سُرِق .. اندفع نحو الفأر الذى كان قد تعلم كيف يَبُخُّ .. وكيف يُنْشِبُ مخالبه !

مارس ٢٠٠١

العــودة

ولما طبَعْتُ بقدميَّ علاماتٍ حمراءَ على أرضها .. تَبَرَّدَتْ روحي .. عانقتُ شجرة الزيتون الجافة .. سألتُ التراب الحبيب الذى ظل يرنو إليَّ طوال أعوام :

"أما زلتَ يا ترابَ الوطن تذكرُهُ ؟ "

***

حملت الهول فى قلبى ..

فى ذاك النهار المشئوم قالوا : **صديقك مات !**

رأيته مطروحًا .. جريت خلف جثمانه المحمول .. وعويل الأحبة ذئاب تنهش طفولتي المذبوحة .. أرقدوه أمامى فى القبر والدماء تضيف مزيداً من اللون الأحمر للعلم الذى يلف جسده ..

"سأجلس بمفردى فى مقعد الدراسة .. فمحمد قد مات !"

***

تقرفصت أبكى فى ظل زيتونة ..

"محمد لن يناديني لنطير الطيارة الورقية التى صنعناها

معًا .. لن يحل لي مسائل الحساب الصعبة .. لن نبكر معًا في يوم العيد لنصلي بملابسنا الجديدة في المسجد العتيق ثم ننطلق لننهل البهجة" .

تساقطت أوراق الزيتون عليّ .. طقطقت فروع الشجرة الخضراء ثم تكسرت .. تشقق ساقها وأنْكَرَتْ نفسها .. تابَعْتُ انتحارَها .. وقَرَّرْتُ الصمود !

هنا .. لابد وأن ينطبع قدمي .. هذا هو صك الملكية .. وسينطبع !

***

في اليوم التالي جلست وحدي في مقعد الدراسة .. وفي كل عام صرت أجلس وحدي ..

وأحفر على النضد اسمه :

"محمد .. صديقي" !

***

خَطْوُنَا الهين على التراب الحبيب يعذبني .. أريد أن أطأه كما أحب .. أريد أن أدبدب .. أن أهرول .. أن أعفر .. لكنه مسروق مني .. أريد أن أرى آثار أقدامي .. لكنها لا تكاد تستقر عليه .. وإنما هو المس .. مجرد المس !

***

حين حطت قدماي وطبعت العلامات الحمراء .. صرخت في شجيرات الزيتون :

"أنبتي من جديد إن أردتِ .. فلم يعد هناك من يغرر بك"

وسرعان ما انبثقت براعم الخضرة .. وقررتُ أن أنجب للأرض أحبابًا جددًا .. يطئونها بثبات ولا يرهبون !

***

على كراساتي كتبت اسمي (..) وصفتي :

"صديقُ محمدٍ" !

ووَشَمْتُ في حنايا القلب صورته .. يصرخ .. ينتفض .. يحتمي بأبيه الذي رشقه العجز بسهم أرداه حزينًا مكلومًا !

لحظتها - وأنا طفل - قررت ألا أصبح أبًا لأطفال مسروقي الوطن ! يحييهم النمرود ويميتهم ! ونبشتُ تربة الذاكرة .. أستخرج جيف الملاعين.. أستنطقها.. لماذا؟ وكيف؟ فما وجدت إلا ألسنة جهنم تنبعث من كل تربة.. حدثتني الألسنة المتلظية:

"هذه نهايتهم"

فتحنا فجوات اللظى .. اندلعت النار المكبوتة .. امتدت أذرعها الحارقة تجذبهم نحو بؤر متأججة ..

طبعنا بأقدامنا علامات حمراء .. تبردت أرواحنا .. دنونا من حدائقها التي كانت قد عقمت عن إنبات شجيرات الزيتون .. سألْنَا ترابَها الذي ظل يرقبنا أعوامًا طوالاً :

"أما زلت يا تراب الوطن تذكر أحبابك؟"

وقررنا أن نعيش !

مارس ٢٠٠١

الفهرس

المؤلف

- نجلاء محمود محرم
- صدر لها :

– استيقظ ، مجموعة قصصية ، ١٩٩٧ .

– تعظيم سلام ، مجموعة قصصية ، ٢٠٠٠ .

– شرشيبل ، رواية ، ٢٠٠١ .

– البئر ، رواية ، ٢٠٠٢ .

– لأنكِ لم تعرفي زمن انتقادك ، مجموعة قصصية ، ٢٠٠٣ .


من قائمة الإصدارات الأدبية

العنوان	المؤلف
ليلة العشق والدم	إبراهيم عبد المجيد
حمدان طليقا	أحمد عمر شاهين
ملاعيب الاكابر	أحمد الشيخ
سريب	أحمد الفيتوري
وقائع غرق السفينة	إدريس علي
واحد ضد الجميع	إدريس علي
المبعدون	إدريس علي
طريق النسر	إدوار الخراط
صخور السماء	إدوار الخراط
تباريح الوقائع والجنون	إدوار الخراط
مخلوقات الأشواق الطائرة	إدوار الخراط
الهيش	أشرف العوضي
حذاء السيد المنسي	أشرف العوضي
همس العاشقين	أمين بكير
حكايات من دفاتر النسوان	أمين بكير
ألم يخلقها الله امرأة	أمين العزب
أشياء خاصة جدًا	أمينة العمادي
دنا فتدلى (من دفاتر التدوين ٢)	جمال الغيطاني
مطرية الغروب	جمال الغيطاني
تكوينات الدم والتراب/الخروج عن النص	د. جمال التلاوي
المتعبون	جمعة محمد جمعة
يومية هروب	خيري عبد الجواد
مسالك الاحبة	خيري عبد الجواد
العاشق والمعشوق	خيري عبد الجواد
الحدود	رأفت سليم
اركبوا دراجاتكم	رجب سعد السيد
سيرة عزبة الجسر	سعد الدين حسن
شجرة الخلد	سعد القرش
شهقة	سعيد بكر
أيام هند	سيد الوكيل
كف مريم	سعيد سالم
الممنوع من السفر	شوقي عبد الحميد
أيام القرية الأخيرة	صالح سعد
دروانين	عاشور الطويبي
الدميرة	د. عبد الرحيم صديق
الغواية	د. عبد الرحيم صديق
مرسى ديله	عبد الفتاح الشتى
ليس هناك ما يبهج	عبده حال
لا أحد	عبده حال
آخر ما قاله النهر	عز الدين الأسواني
صعيدي صَح	د. عزة عزت
سراديب	عفاف السيد
إينارو	د. علي فهمي خشيم
تحولات الجحش الذهبي	ترجمة د. علي فهمي خشيم
جنية الشفق (قصص شاعرية قصيرة جدا)	د. فاروق أوهان
البحر يغرق	د. فاروق أوهان
وجهها وطن	فاطمة يوسف العلي
تاء مربوطة	فاطمة يوسف العلي
شفيقة .. وسرها الباتع	فؤاد قنديل
الحمامة البرية	فؤاد قنديل
لبلاد طلبت أهلها	فيصل سليم التلاوى
يوميات عابر سبيل	فيصل سليم التلاوى
وتر مشدود	قاسم مسعد عليوة
خبرات أنثوية	قاسم مسعد عليوة
أمير الدينة	ماهر أبو السعود
حكاية ليلة طويلة	ماهر أبو السعود
الفتيت المبعثر	محسن الرملي
الميناء الشرقية	محمد جبريل
مد الموج	محمد جبريل
طوفان النار	محمد حافظ صالح
هذيان	د. محمد حسن غانم
كل الأشياء الجميلة تنهار	د. محمد حسن غانم
عبور الميدان ظهرا	محمد سليمان
تل المطاردة	محمد شاكر
مدافع الأب عياش	محمد صدقى
أشياء لا تموت	محمد صفوت
وداع لم يتم	محمد صفوت
النعاج	محمد عبد السلام العمرى
بعد صلاة الجمعة	محمد عبد السلام العمرى
هالة النور	محمد العشرى
تفاحة الصحراء	محمد العشرى
صدقني لأنني أكذب	محمد علي سعد

العنوان	المؤلف
حبال من رمل	محمد علي سعد
لوحة ممنوع	محمد علي سعد
الحواس	ترجمة محمد عيد إبراهيم
حريم ـ (أعزكم الله)	محمد الغربي عمران
ضمائر في قفص الاتهام	محمد فتحي
الرقص في أكفان الوقت	محمد فتحي
الخروج إلي النبع	محمد قطب
رشفات من قهوتي الساخنة	محمد محي الدين
يا عم يا جمال	محمد الناصر
الحياة الثروة	د. محمد نعيم شريف
أرتيكاريا السكريتاريا	محمد يوسف
الحبيب المجنون	د محمود دهموش
فندق بدون نجوم	د محمود دهموش
إنسان (رواية فلسفية)	محمود القمحاوى
الحياة مفرد مؤنث	محمود قاسم
اختزال في المسافة والسفر	محمود الورواري
احترس السيارة تعود للخلف	المقداد محمود
أعوام في رجال المع	ممدوح القديرى
أيام في شتاء القاهرة	ممدوح القديرى
الحنين إلى النسيان	ممدوح القديرى
الضياع وجيل الأوهام	ممدوح القديرى
الهبوط إلى الجنون	ممدوح القديرى
الهروب مع الوطن	ممدوح القديرى
فوق لهيب الشموع	ممدوح القديري
ثلاث حقائب للسفر	منى برنس
دم الأبنوس	ناجي الشكري
وبصدأ ماء النهر	ناصر الهلالي
زهرة صيف	ترجمة ـ نجاح سفر
حافة الفردوس	نبيل عبد الحميد
الدائرة	د نجدي إبراهيم
حكايات مصرية	د. نجدي إبراهيم

العنوان	المؤلف
أنا السلطان	د. نجدي إبراهيم
البئر	نجلاء محمود محرم
لأنك لم تعرفي زمن القلادة	نجلاء محمود محرم
قمر أخضر	نهلة السوسو
ديسمبر الدافئ	هدى جاد
أيام زمان ـ أين أنت؟	د. هشام قاسم
خلف النهاية بقليل	وحيد الطويلة
وانهار الدب الأحمر	ياسر عبد التواب
فرد حمام	يوسف فاخوري
أنا كنده (قصص قصيرة)	ت : رزق أحمد
تحولات الجحش الذهبي (رواية)	ت : د. علي فهمي خشيم
إني على حبك باقية (شعر)	ت : فيصل الياسرى
دون كيشوت طليقا (مسرحية)	ت : فيصل الياسرى
المتعطف (مسرحية)	ت : فيصل الياسرى
الحواس	ت. محمد عيد إبراهيم
الهايكو - رحلة حج بوذية (شريلباني)	ت : محمد عيد إبراهيم
شجرة مطر (قصص قصيرة)	ت : محمد عيد إبراهيم
نهايات (شعر) (حائزة لجائزة نوبل ١٩٩٢م)	: محمد عيد إبراهيم
الخلاص بالحرية (مقالات في الأدب)	ت : محمد عيد إبراهيم
زهرة صيف	ت : نجاح سفر
هذه الليلة الطويلة	د. أحمد صدقي الدجاني
الدمية والدم	أنور عبد المغيث
قراقوش والأراجوز والحرفوش	السيد حافظ
الأمل الخالد	د. شوقي سعد
الشاعر والحرامى	عزت الحريرى
دون كيشوت طليقا	ترجمة · فيصل الياسرى
المتعطف	ترجمة · فيصل الياسرى
دنانير من ذهب	فيصل الياسرى
عريس لبنت السلطان	محفوظ عبد الرحمن
انتظار التاج (مسرحية شعرية)	محمد أحمد حمد
اللعبة الأبدية .. (مسرحية شعرية)	محمد الفارس

بالإضافة إلى العديد من الكتب الأدبية ؛ رواية .. قصة .. شعر .. دراسات ونقد
وكتب متنوعة : سياسية ، قومية ، دينية ، معارف عامة ، تراث ، وأطفال .
خدمات إعلامية وثقافية


لأنكِ لم تعرفى
زمن افتقادكِ
"وفيما هو يقترب نظر إلى المدينة
وبكى عليها قائلا: إنك لو علمت أنت
أيضا حتى في يومك هذا ماهو لسلامك
ولكن الآن قد أخفي عن عينيك.
فإنه ستأتي أيام ويحيط بك أعداؤك
بمترسة ويحدقون بك ويحاصرونك
من كل جهة. ويهدمونك وبنوك فيك
ولا يتركون فيك حجرا على حجر لأنك
لم تعرفي زمن افتقادك"
إنجيل لوقا - الإصحاح التاسع عشر
مركز الحضارة العربية
2.736
5246
003
0665774